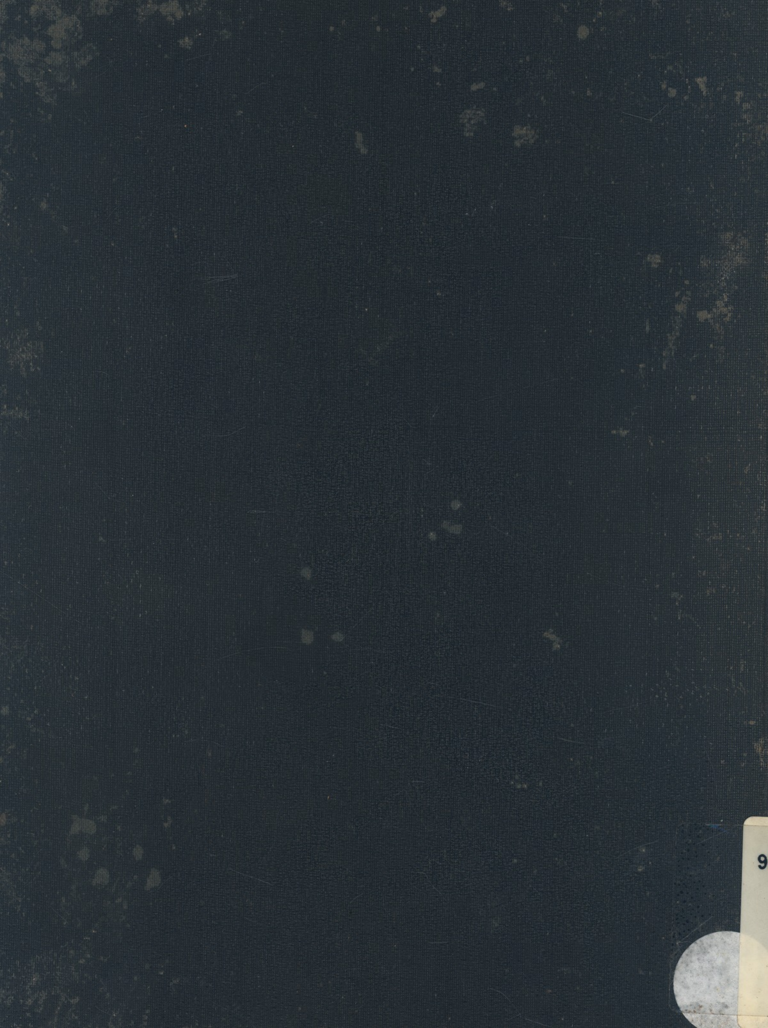


كتاب
الدُّروس التاريخية

محمد الطيب النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

احوال البلاد العربيه قبيل ظهور الاسلام (١)

بلاد العرب هي تلك الارض الواسعة التى فى جنوب آسيا يحدها شمالا الشام والجزيرة والعراق وغربا قناة السويس والبحر الاحمر وجنوباً خليج عدن و بحر عمان وشرقاً بحر عمان والخليج الفارسى والعراق فهى شبه جزيرة عظيم وقد تسمى جزيرة تسامحا . وهي ثمانية أجزاء كبيرة الحجاز واليمن في الغرب . وحضرموت ومهرة وعمان في الجنوب . والبحرين والحسا في الشرق ونجد والاحقاف أو الدهناء فى الوسط

فأما بلاد عمان والبحرين في الشرق فكانت مفصولة عن سائر بلاد الجزيرة بأمرين أحدهما طبيعي والآخر سياسى . فأما الطبيعي فتلك المفاوز والبرارى الواسعة والصحاري الجدبة المقفرة التى حالت بينها و بين سائر البلدان وأما السياسى فاذعانها لسيادة الاكاسرة

وأما بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب فكانت ميدانا للحروب الداخلية والفتن الاهلية فهوت من قمة مجدها الباذخ وفنيت منها سلالة التبابعة الذين بنوا مأربا وقصور غمدان وظفار وأقاموا سد مأرب الذى يشبه خزان أسوان فى مصرنا الآن . وكان هدم ذلك السد في أوائل القرن الاول للميلاد سبباً لخراب هذه البلاد التي سماها اليونان والفرنج على أثرهم البلاد العربية السعيدة . واسمها دليل على ذلك فان اليمن واليمن واليمين من مادة واحدة . فهى من أخصب بلاد العرب ولخصبها وحسن موقعها كانت الدول القديمة تحاول امتلاكها وتتحين الفرص لذلك وكان في بلاد اليمن أمم من أضخم الامم بلغت أعلى منازل العظمة والابهة وضخامة الملك فكان فيها مملكة الحميريين ومنهم الملوك التبابعة وأحدهم تبع . وكان التبع بمنزلة أمبراطور ألمانيا الآن وشاهنشاه الفرس أى ملك الملوك لسيادته على عدة ملوك مستقلة استقلالا داخلياً يسمون الاذواء أو الاقيال . وكانت عدن من المدن المستقلة فكانت كمدينة همبرج في ألمانيا الآن وهي التى تسمى المدينة الحرة لمجلسها النيابى (السناتو) الذي يدير شأنها وكلا البلدين عدن وهمبرج فرصة كبيرة لمملكتها .

وكان في تلك البلاد السعيدة أديان شتي ولكل دين أنصار يحمون لواءه ويحمون زماره . فكانت فيهم اليهودية . وكانت فيهم النصرانية انتشرت في نجران كلها وكانت فيهم الوثنية . وكان آل كل دين يطمعون في الغلب والرياسة و يحاولون اعلاء دينهم بخفض سائر الاديان فاذا عجزت فئة دون بلوغ مأربها استنجدت الامم الاجنبية من الحبشة والروم والفرس . فساعد ذلك العداء وهذا الخلاف وتلك المنافسة وتعدد الملوك في هذه البلاد ــ ساعد كل ذلك الامم الاجنبية الطموحة الى امتلاكها لخصبها وحسن موقعها على الامتلاك فهجمت الحبشة عليها ثلاث مرات وقد سعى سيف بن ذى يزن في دفعهم فاستغاث بالروم (الاغارقة) فلم يغث ــ كما أخفق امرؤ القيس في استنجاد قيصر وأمره معروف ــ فالتجأ الى فارس فأغاثه كسرى بمرزبان وهو يشبه البطريق والمرزبان اسمه *Satrape* بالفرنسوية وجيش معه من المسجونين جيشاً فأعادوا سيف الملك الى سيف بن ذي يزن فهنأته العرب وأوفدت اليه قريش وفد عبد المطلب المعروف أمره و بقيت السيادة العملية للفرس (وكانوا يسمون الاذواء بالابناء) حتى ظهر الاسلام فأجهز عليهم وأدال دولتهم

---

(١) لاحمد زكي باشا

ولم يزل اختلاف أهل اليمن الديني والسياسى الذى لايدخل بلدا حتى يجعل أعزة أهلها أذله ينخر عظامهم الى أن اضمحلوا و بادوا ولـكن السبب الاقوي في ابادتهم وزوال ملـكهم هدم سد مأرب كما تقدم فتفرق أهله أيدي سبا فنزلوا الحيرة وغسان و يثرب وغيرها ـ هؤلاء هم عرب الجنوب والشرق وتلك حالهم

أما عرب الشمال فان لهم مملـكتين صغيرتين مملـكة الحيرة فى العراق العربى وملوكها يسمون المناذرة أو النعامنة وكانوا يذعنون لسيادة الفرس . ومملـكة غسان في الشام وملوكها يسمون الغساسنة نسبة الى عين ماء بها وكانوا يذعنون لسيادة الروم

وأنشئت هاتان المملـكتان فى القرن الاول للمسيح وكان ملوكهما في خصام دائم لاتضع الحرب أوزارها بينهم الا اذا نشب القتال بين تينك الدولتين الضخمتين الفرس والروم فتنضم مملـكة الحيرة الى الفرس ومملكة غسان الى الروم لا لنصر احدى الدولتين على الاخرى ولـكن لانتقام بعضهم من بعض وهم في مثل هذه الحروب لافضل لهم في النصر لانهم ذيول وأذناب لغيرهم — هذا أمر الشرق والجنوب والشمال

أما الغرب والوسط وعما الحجاز ونجد فلم يشبهما نقص وقد أتم الله عليهما نعمته فلم يسلبهما نعمة الحرية والاستقلال فـكانوا كافة أعزاء أباة للضيم يأبى كلهم الا أن يكون رئيسا فهم رؤساء جميعاً . لذلك لما نشط علماء الصدر الاول لتدوين اللغة العربية لم يأخذوها الا من كلام قبائل معدودة من نجد والحجاز وماكتنفهما لسلامة ألسنتهم مما انتاب ألسنة أهل سائر البلاد العربية وتلك القبائل المعدودة هي قيس وأسد وتميم في نجد وهزيل بغزوان جبل فوق مدينة الطائف . و بعض كنانة بدومة الجندل بين الشام والمدينة قرب جبلي طىء و بعض بني طيء بجبلي أجا وسلمى في شمال نجد

ومكة وهي قصبة الحجاز لم ينبه لها ذكر قبل الاسلام الا بالـكعبة لذلك حاولت ثقيف في الطائف أن تلفت وجوه الناس عنها فأنشأت لها بيتا وأقامت فيه صنما اسمه ذو الخلصة وجعلت فيه مزايا بيت الله الحرام فـكان مشبع الجائع ومروى الظمآن ومأمن الخائف ومقضى ذوي الحاجات ومجار المستجير ومأوى أبناء السبيل وكانت العرب تسميه الـكعبة اليمانية وكان يزاحم الـكعبة الحجازية . كذلك صنع عبد المسيح بن داوس ابن عدي أحد أمراء اليمن السالفين فانشأ في نجران في أول انتشار النصرانية في تلك الجهات قبة سماها كعبة نجران وجعل لها تلك المزايا نفسها وكان يؤمها كثير من العرب فـكانت تلك الامكنة وغيرها ممن حذا حذوها تنازع مكة قديما الرياسة وتنافسها في العظمة

ومنافسة الطائف لمـكة حملت ثقيفا على ارشاد أبرهة الحبشي على الطريق لما أراد هدم الـكعبة ليخلو لهم الجو بل ان الروم كادوا يملكون الـكعبة في عصر النبي « ص » باغراء وقيادة عثمان بن حويث النصراني

فلم يكن في بلاد العرب مملـكة أو شبه مملـكة لها من العز مايكفى لاعلاء كلمتها ورفع رايتها على سائر بلاد العرب لان القوم جميعا كانوا فى نزاع دائم وشقاق مستمر عاقهم عن تفوق بعضهم على بعض . ولم تبلغ مكة قبل الاسلام يوما ما في بلاد العرب مبلغ أثينا في دولة اليونان ولا رومية في دولة الرومان ولا بوزنطيه أى القسطنطينية في دولة القياصرة من بني الروم بل كانت ممالك الحيرة وغسان وقبائل نجد وتهامة ذات شأن حقير وأثر ضئيل في تلك الملاحم التي نشأت بين رومية ثم القسطنطينية و بين الفرس في تلك الملاحم التى كان ابطالها سابور

(سابور ذو الاكتاف) و يوليان المرتد و بليسا وكسرى أنوشروان وكسرى ابرويز وهرقل

﴿ اجمال وصف حال العالم قبيل ظهور الاسلام ﴾

جاء الاسلام بدين التوحيد وفي الارض دولتان دولة الروم وهى نصرانية تقول بالتثليث ودولة الفرس وهي مجوسية تقول بالتثنية

دولة الروم

ان هذه الدولة قد اضطربت أمورها قبيل ظهور الاسلام وظهرت فيها أمراض اجتماعية بسبب الاختلاف الذي بلغ منتهاه بين ذوي السلطة فيها سواء كان من جهة أو من جهة السياسية والعمران . وقد شاعت عند ظهور الاسلام نبوة غريبة تداولتها الالسن في كل مكان وهي ان دولة الروم ستسقط على يد الامم المختونة . فاضطهد هرقل اليهود اضطهادا شديدا وأبادهم جميعاً حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم الا من فر واختفى وقد نجا جماعة منهم بالهرب الي بلاد العرب لانهم كانوا ساعدوا الفرس على النكاية بالنصارى .

وكانت الشامات والعراق وآسيا الصغرى فريسة الفوضى والانحلال بسبب الاختلافات الدينية (١) والاضطرابات السياسية . وافريقيا فقد نازلها (القوط) بعد أن جازوا بحر الزقاق المعروف الآن ببوغاز جبل طارق فى سنة ٦٢٠ للميلاد أي قبل الهجرة النبوية بثلاث سنين . وتملك القومس (الكونت) يليان بلاد سبتا وهو الذي مهد للمسلمين فتح الاندلس . وبعد ذلك بقليل استقل بملك سبيطله من أعمال تونس الآن . البطريق غريغوريوس وهو أخو هرقل صاحب افريقيه الذي تولى ابنه هرقل امبراطورية الروم وكاتبه صاحب الشريعة الاسلامية. فلم يبق للامبراطورية الرومية في أفريقية سوى قرطاجة ومدائن قليلة وكانت كلها مضمحلة الاركان بحيث اذا هاجمها عدو من الخارج بشيء من الشدة والعزيمة سقطت في يده وذهبت معها بقايا الدولة الرومية أدراج الرياح وذلك هو الذي وقع عند ما ظهر الاسلام في ذلك الوقت .

أما مصر فقد كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى وهم علي قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية وهم ملكيون أو ملكائيون يزيدون على ٣٠٠,٠٠٠ نفس والقسم الآخر عامة اهل مصر بأسرها ويقال لهم القبط وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من الغربى من الاسرائيلى الاصل من غيره . وكلهم يعاقبه . فمنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة . ومنهم الاساقفة والقسوس ونحوهم ومنهم أهل الفلاحة والزرع ومنهم أهل الخدمة والمهنة . وبينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم ويوجب قتل بعضهم بعضاً وكانت الامة المصرية حيال سادتها الروم في منتهى الذل والعبودية قد أثقلتها الضرائب والمظالم وحاقت بها أسباب الخسف والهوان وأبناؤها يسومهم الروم سوء العذاب

(١) سبب هذه الاختلافات الدينية مزج المسيحية بالوثنية وظهور الخلاف الكبير في المشيئة والطبيعة والناسوت واللاهوت وزيادة الارتباك بين رجال الكهنوت كذلك اشتد النزاع والخصام بين أساقفة القسطنطينية والاسكندرية ورومية اذ كان كل منهم يريد لنفسه الزعامة علي الملة النصرانية فالاول يؤيد دعواه بأن مدينته هي كرسي الملك والثاني يؤيد دعواه بأن لمدينته الزعامة العلمية والتجارية والثالث يقول ان رومية هي المدينة الخالدة ذات المآثر الباقية والسيادة القديمة في الدين والسياسية

ويمتصون ينابيع ثروتهم ويغتصبون ثمرة أتعابهم وولاة الروم لاهم لهم الا تطلب المال وجمعه من هنا وهناك دون أن يعبئوا بشيء من مصالح البلاد الاقتصادية والزراعية أو من أمور الرعية وكثرت الفتن الدينية بدسائس الروم حتى افتتنت العائلات (الاسر) وحقد الاب على ولده والزوجة على زوجها والاخ على أخيه والابنة على أمها مع اختلاف المذاهب وتشعب المشارب التي كان القائمون بها يقوم بسببها بعضهم على بعض فيريقون الدماء هدرا في الشوارع والازقة فوصل الخلل والاضطراب الى نهاية ما تتصوره العقول حتى صارت مصر تترقب الخلاص من نير الروم بأية وسيلة كانت ولذلك استقبلت العرب بفرح شديد كما كانت استقبلت الرومان الذين أنقذوها من البطالسة وكما كانت استقبلت البطالسة الذين خلصوها من ظلم الفرس

دولة الفرس

كانت تدين بالمجوسية وكان لها من الشأن ما كان حتى اذا تسللت اليها الاختلافات الدينية تحلل جثمانها وحل مكانها الاسلام فلقد قام فيها قبيل ولادة النبي العربي رجل اسمه مزدك (مزدق أو مردك) فقال بالاصلين أي النور والظلمة وأدخل عليها طريقة التثليث التي قال بها الروم فذهب الى ان الاصول والاركان ثلاثة : « الماء والنار والارض » وأنها اختلطت فحدث عنها الهان اثنان وهما مدبر الخير ومدبر الشر ثم نهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال . ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والاموال أحل النساء والاموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ وأعقبه ويصان ثم « مرقيون » فمزجا بالمجوسية شيئاً من تثليث النصرانية فاضطرب حبل المجوسية فى الشرق كما اضطرب حبل المسيحية في الشمال وفي الغرب . وكان ذلك ممهدا لظهور دين جديد لصلاح العالم وأعني به دين التوحيد .

لم يقف الاضطراب في فارس عند حد الدين بل اضمحل أمرها بالحروب الكثيرة التي اشتبكت فيها قبيل ظهور الاسلام . فانها ما كانت تفرغ من مغير حتى يهاجمها آخر هو أشد وأقوى . وما زالت تتوالى عليها صدمات خاقان الترك الاعظم ثم قيصر الروم ثم ملك الخزر وذلك كله في أيام هرمز أبي كسرى أبرويز الى أن اجترأ الاعادي على فارس وسقطت هيبتها من النفوس حتى أن خلقا من العرب خرجوا عليها ونزلوا في شاطيء الفرات وشنوا الغارة الشعواء على أهل السواد . فضلا عما كان بينها وبين الروم مما سيأتي ذكره بعد . فأما خاقان ملك الترك الاعظم فقد كان يهاجم الروم بقومه من شمال القسطنطينية وقد أراد أن يهاجمهم أيضاً من جهة الجنوب حينما رأى اختلال دولة الفرس فأرسل الى هرمز والى عظماء مملكته وأساورة بلاده يؤذنهم باقباله ويقول . « رموا لي قناطر أنهار وأودية أجتاز عليها الى بلادكم وأعقدوا القناطر على كل نهر لا قنطرة له وافعلوا ذلك في الانهار والاودية التي عليها مسلكي من بلادكم الى بلاد الروم فاني مجمع على المسير اليها من بلادكم » فأنكر هرمز ما ورد عليه من ذلك فأرسل رجلا من انجاده لحاربته وصده عن بلاده وهو بهرام (جو بين) أو « شو بين » وقد عاد قائده مظفرا منصورا بعد أن قتل خاقان وأسر ابنه وحمل اليه من الاموال والجواهر والاواني وسائر الامتعة مما غنمه وقر مائتي وخمسين الف بعير ثم دبت عقارب السوء بينه وبين هذا القائد العظيم . فتنكر لهرمز وجوه الدولة وأعيان الجيش فخلعوه وولوا بهرام هذا في خطب يطول

ولكن كسرى أبرويز بن هرمز أسقطه بمساعدة ملك الروم وجلس على عرش أبيه وقد أرسل اليه القيصر

ثو بين فيهما علامة الصليب فلبسهما فقال الفرس « قد تنصر الملك » وحقدوا عليه بهذا السبب وفوق ذلك لم يحسن سياسة الجند فخالفوا عليه وانضم أكابر قواده الى ملك الروم ثم فسدت عليه نية ملوك العرب فزاد ذلك في اضطراب الامر بفارس وزاد شغب الامة على كسرى أبرويز فقتلوه لتجبره واحتقاره العظماء وعتوه وذلك انه كان قد جمع من المال ما لم يجمعه أحد من الملوك وبلغت خيله قسطنطينية وأفريقية وكان له اثنا عشر الف امرأة وجارية والف فيل الا فيلا واحدا وخمسون الف دابة ومن الجواهر والآلات والاواني ما يليق بذلك فعتا واستهان بالناس والاحرار فلذلك اكتسب عداوة أهل مملكته لامور وقعت منه.

أولا — انه أمر بقتل كل مقيد في سجونه وكان عددهم ٣٦٠٠٠ رجل ولكن الموكل بهذا الامر الفظيع توقف في تنفيذه.

ثانيًا — انه احتقر الامة واستخف بعظمائها

ثالثًا — انه سلط عليها علجا يقال له فرخان ضغط على الامة وشدد في استخراج بقايا الخراج بعنف وعذاب

رابعًا — ان كسرى أجمع أمره على قتل فل الذين انصرفوا اليه من قبل هرقل فتذمر الناس وائتمروا عليه واجتمعوا على ابنه شيرويه الذي كان مسجونا مع بقية اخوته في بابل وخلوا عن المسجونين في السجون واجتمعوا على الجنود العائدة من قتال الروم ثم أقبل شيرويه في جموعه على كسرى فحبسه ثم قتله بعد حديث طويل.

وفي أيامه كانت الهجرة النبوية لمضي ٣٢ سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما من ملكه وقد هلك بعد أن ملك ٣٢ سنة. ولم يكتف شيرويه بقتل أبيه بل قتل سبعة عشر أخا له ذوي آداب وشجاعة بمشورة وزرائه فابتلى بالاسقام وجزع جزعا شديدا وكان يبكي الى أن رمى بالتاج عن رأسه وعاش مهموما حزينا مدنفا ومات بعد أن ملك ثمانية أشهر فملك بعده ابنه أزدشير ولم يبلغ أكثر من سبع سنين فاحتقره القائد المرابط على ثغور الروم وانكفأ بجنده الى فارس وملك عليها ولم يكن من بيت الملك فتخالف الناس عليه وقتلوه بعد أربعين يوما وملكو بوران دخت وهي بنت كسرى أبرويز فأحسنت السيرة وبسطت العدل وأمرت برم القناطر واعادة العمارات ووضعت بقايا الخراج وكتبت الى الناس عامة تعلمهم ما هي عليه من الاحسان وأنها ترجو أن يريهم الله الرفاهة والاستقامة بمكانها ومن العدل وحفظ الثغور ما يعلمون به انه ليس ببطش الرجال تدوخ البلاد ولا بأسهم تستباح العساكر ولا بمكايدهم ينال الظفر ولكن ذلك كله يكون بالله عز وجل وحسن النية واستقامة التدبير. ولكي تستجلب مودة الروم وتذهب حفيظتهم عن بلادها ردت خشبة الصليب على ملك الروم ومضت لربها بعد سنة وأربعة أشهر فتولى الملك رجل من بني عم أبرويز وهلك من بعد شهر فآل الملك الى اذرمي دخت أخت بوران دخت وكانت من أجل نساء دهرها وكانت ملكة بحقها وصدقها لو ساعدها الدهر والعمر ولكنها ملكت والدولة مدبرة باقبال دولة الاسلام فكثرت في أيامها الاحنات وتبسطت الايدي ومرضت السياسة ولقد طمع فيها أحد القواد وأراد أن يتزوجها فأرسلت اليه (ان التزويج للملكة غير جائز فاذا كان مرادك فيما ذهبت اليه قضاء حاجتك مني فصر الى في ليلة كذا وكذا) وتقدمت الى صاحب حرسها ليرصده فلما أقبل قتله. وكان للرجل ابن عظيم البأس قوي النفس وهو رستم شجاع الفرس وفارس القادسية المشهور. فأقبل وقتل الملكة بعد أن سمل عينيها. ثم توالت الفتن والاضطرابات على من ولي أمر الفرس ممن تداول الملك بعدها من النسوان

والصبيان حتى جاء يزدجرد وهو غلام مراهق فكان ملكه عند ملك آبائه وأجداده كالخيال وكانت العظماء والوزراء يدبرون ملكه لحداثة سنه ولم يبق من دولة العجم الا رمق والاهواء مختلفة والجماعات متفرقة والامور منحلة والسياسة مختلة والاحوال مضمحلة فضعف أمر المملكة واجترأ عليها الاعادي من كل وجه وطرقوا البلاد وخربوها وغزت العرب مملكته فهرب يزدجرد امامهم ومعه الف طباخ والف مطرب والف فهاد والف بازيار وانتهى أمره بسقوط ملك فارس في الشرق على أيدي المسلمين الذين أورثهم الله ملك الروم في الشمال وفي الغرب .

الفرس والروم

ان الفرس وثبوا على هرمز « أوهرمزد » ملكهم ففقئوا عينيه وخلعوه ولم يقتلوه تحرجا وولوا عليهم مزربانا من غير بيت الملك اسمه بهرام وكان ذلك في السنة الثامنة لموريق قيصر الروم وهي سنة ٩٥٠ للمسيح وكان لهرمز بن حدث اسمه كسرى وهو الثاني المعروف بابرويز وعند الافرنج *Parvés* فخرج من أرض الفرس متنكرا في زي سائل حتى وصل الى ارض الروم وكتب من انطاكية كتابا الى موريق قيصر الروم يستنجده فرد عليه بكتاب وكلاهما من أبلغ ما كتب ملك الي ملك وارسل اليه ابنه وجيش معه جيشا وأمده بمال فاسترد ملكه و بايعه الناس كلهم وتولى وزارته برمك جد البرامكة الذين ازدانت بهم الدنيا في دولة الرشيد فلما رأى ذلك قيصر الروم اراد أن يغتنم الفرصة لرغبته في بلاد فارس فزوجه من ابنته مريم ثم اهداه حلة عليها صليب فلبسها واستعرض بها جنده فاما الفرس فوجدوا على ملكهم للبسه حلة عليها الصليب وأما الروم فلم ينظروا الي شهامة قيصرهم مع عدوهم بعين الرضا لاسيما تزويجه اياه من ابنته فشغبوا عليه وقلبوا تماثيله وكان القائم بهذه الحركة بظريقيس من بيت الملك اسمه فوقاس كما كان القائم بالثورة على هرمز الفارسي مزربان من غير آل ساسان

وكان بطريرك القسطنطينية قد غضب على القيصر لهذا السبب ولاسباب اخرى فكرّس فاقوس و بارك له وجعله أمبراطورا ولكن بعد ان تحقق من أرثوذكسيته ثم قتل الروم موريقا وأبناءه وزوجته و بناتها ومال القوم على أشياعه وأوليائه ففقئوا عيون بعضهم وسلوا ألسنة بعض آخر ووثبوا علي جماعة منهم فقطعوا أيديهم وأرجلهم وانهالوا على جماعة آخرين جلدا فقتلا

وصلت أخبار هذه الحوادث الى رومية والى فارس فكان لها فيهما صدى متخالف متعاكس . فاما رومية فقد ابتهج فيها البابا غريغوريوس وطلب من الله أن ياخذ بنصر فوقاس وأن يشد أزره على عدوه . فكانت مكافئته علي ذلك ان اعترف له قيصر الروم باللقب الذى طالما مني به نفسه وهو (الاسقف العام)

وأما فارس فلم يكد يبلغها خبر هذا الانقلاب حتي امتعض له ابرويز وأخذته الحفيظة لصداقته مع موريق الذي كانت له عليه اليد البيضاء في اعادة ملك أجداده اليه وقد التجأ اليه ابن موريق . فآواه واكرم مثواه ووعده برد الامر اليه

كذلك كان الحال في أفريقيه فان هرقل الاكسرخس أى الوالى أو العامل بلغ منه الحزن منتهاه لتلويث الارجوان الامبراطورى بوضعه على جسم ذلك الدخيل فوقاس فرفض دفع الجزية اليه وامتنع عن الاعتراف به ومنع عنه الحبوب والغلال التي كانت ترسلها أفريقية الى القسطنطينية فسجن الامبراطور في أحد الاديرة زوجة هرقل واسمها (ايفانيا) وعروس ابنه واسمها (اودسيا) فاراد هرقل أن يحاربه ولكنه نظرا لشيخوخته

ولعاهانه عهد بذلك الى ابنه هرقل فاتفق مع (نقيطا) ابن عمه غريغور المستبد باعمال سبيطله في الحوز الجنوبي لتونس على غزو الامبراطور وانتزاع الملك منه على ان هرقل يذهب اليه بحرا وان نقيطا يسير اليه برا عن طريق لوبيا ومصر والشام وأسيا الصغري واتفقا على ان الملك للسابق الى القسطنطينية اذا قتل فوقاس فكان السابق بالطبع هرقل وذهب موفقا مظفرا منصورا الى القسطنطينية فانضمت اليه الامة ومجلس أعيانها بل ورجال كهنوتها الذين لم يكن لهم مبدأ ثابت في الاحوال السياسية نظرا لكثرة تزعزعهم في الاصول الدينية فسرت اليهم عدوي الاختلاف في السياسة من جراء الانشقاق في المذاهب والاعتقادات لاسيما ان القيصر أعطى بطريرك روميه لقب الاسقف العام فاغضب بطريرك القسطنطينية

تملك هرقل بن هرقل وقتل فوقاس واستخلص عروسه ولبس رداء الارجوان وهو شعار الامبراطور على يد البطريرك سرجيوس (سرجس او سركيس) غير ان الثورة فى القسطنطينية لم يرتضها شاهنشاه الفرس كسرى ابرويز فسرح المرزبان المعروف بشهربراز في جيش كثيف الى الروم للطلب بثار موريق صاحبه وصهره وللايقاع بالملك الجديد فعبر الفرات وهاجم بلاد الامبراطورية وقوبلت جنوده بالترحيب من المنشقين بسبب الدين واستحوذ علي انطاكية فقيسارية فدمشق ثم اورشليم وأحرق كنيسة القيامة (او القمامة) وكنيستي قسطنطين وهيلانه ثم استولى علي مصر وهرب منه يوحنا بطريرك الاسكندرية الى قبرص ومات بها وانفذ جيشا لمحاصرة قسطنطينية وهي عاصمة الدولة ودار الملك فخاف القيصر أن تفتح واستعد للهرب وجمع خزائنه وذخائره وفي جملتها خشبة الصليب المقدس وأرسلها في سفن له الى افريقية فعصفت بها الرياح وسيرتها للاسكندرية فظفر بها شهربراز وقبض عليها كلها و بعثها الى ابرويز فحمد الله الذي سخر له الريح حتي جاءته بخشبة الصليب وافرد لها خزانة سماها كنزالريح وهي بالفارسية كنج باذاورد ثم استحوذ شهربراز على ساحل بحر الروم لغاية طرابلس الغرب وامتلك آسيا الصغري ولبثت جنود الفرس معسكرة مدة عشرة أعوام على أبواب القسطنطينية وفى أثناء ذلك ماتت زوجة القيصر فتزوج مارتينا بنت أخته خلافاً لما تقضي به أوامر الكنيسة فغضبت عليه الامة كما غضبت عليه الكنيسة وأوقعته بين نارين نار الثورة الداخلية ونار العدو الفارسي الواقف له بالمرصاد فضلا عن هجمات خاقان المغول الوافدين من سواحل بحر قزوين . فلما ضاق الحال علي هرقل وبلغ منه اليأس منتهاه وأعيته الحيل راسل كسرى في الصلح فأجابه « لا أرضى بمصالحة أمبراطور بوزنيطه الا اذا كفر بآلهة المصلوب فتمجس وعبد الشمس » .

فاستبسل الامبراطور هرقل وجمع كل قواه (لا سيما ان أهل النصرانية غاظهم هذا الجواب من الملك المجوسي فكان سبباً في التفافهم حول قيصرهم) حتى تيسر له ارضاء كسرى بعد زمان طويل بالرجوع عن الامبراطورية في نظير فدية قدرها ألف قنطار من الذهب وألف قنطار من الفضة وألف ثوب من الخز وألف فرس وألف عذراء

وكان النبي العربي قد ظهر في أثناء هذه الوقائع ونزل عليه القرآن وأشار اليها بقوله تعالى . « غلبت الروم في أدنى الارض » ثم تنبأ بقرب فوزهم فقال « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » فكانت هذه النبوة المتقدمة على وقتها المحدد معجزة لاحد . وذلك ان هرقل لم يخضع الا أمام القوة ولم تسكن نفسه للاستكانة حيال هذه المذلة فتربص حتى جمع شمله الرث وعاد الى مهاجمة الفرس حينما ساعدته الفرص . فظهر عليهم في كل مكان وقارنه السعد والظفر في جميع الوقائع وخدمت جنوده الايام فكانت انتصاراته أبهي وأجل مما أحرزته رومية في أيام مجدها القديم

حتى شبهوه بالاسكندر وقسطنطين الاكبر. وهذا سر قوله تعالى « وهم من بعد غلبهم سيغلبون »

فاسترد هرقل من العدو كل ما أخذه من بلاده وأملاكه ولكنه لم يتمكن من اعادة الدين الى سابق نصابه لان المجوسية أنزلت بالنصرانية امام العالم كله مسبة ليس بعدها مسبة اذ أهانت القبر وأحرقت الكنائس وأخذت الخشبة فتحارب الدينان الكبيران وتفانيا في تلك الايام ومهدا السبيل لظهور الاسلام .

استعداد العرب[1]

لقبول الوحدة الدينية والسياسية

ان العرب كانت في جاهليتها قبائل متقاطعة متدابرة قد أنهكتهم الغارات وادراك الثارات فحدثت أمور استدعت تضامهم وائتلافهم بعض الشيء ، فمهد ذلك للاسلام طريق جمعهم على كلمته وقيامهم بدعوته . فمن تلك الامور :

(١) اتفاقهم مع اختلاف مللهم ونحلهم على تعظيم الكعبة واعتقاد مناسك الحج وتشريف قريش سدنة الكعبة وأهل البصر بالدين منهم ، وتحريمهم على أنفسهم احداث حرب في الاشهر الحرم من السنة الا اذا أحلت لهم ذلك أشراف كنانة وقريش

(٢) انتشار التجارة في العصور الاخيرة بينهم ، وقيام قريش بها بين اليمن والشام والعراق واقتداء كثير من القبائل بهم ، واختلاطهم بالامم المتمدينه ، فتولد فيهم حب تبادل المنفعة

(٣) اتخاذهم الاسواق الكثيرة للتجارة وتجاذب الافكار وتناشد الاشعار والقاء الخطب والمباهاة بفصاحة اللسان وشرف العشير واستكمال الصفات الممدوحة فيهم ، مما كاد يوحد لغتهم وآدابهم ، ويحسن التفاهم بينهم ، ومن أشهر هذه الأسواق عكاظ وذو المجاز

(٤) قصد الفرس لبلاد العرب لابادتها ، وتجمع بعض قبائل العرب لصد غارتهم ، وانتصارهم عليهم قبيل انتشار الاسلام في موقعة « ذي قار »

عرفوا من كل ذلك فائدة الاتحاد ، وزاد ثقتهم بأنفسهم، فتطلعوا الى الانتفاع بمواهبهم ، وهيأهم الله لان يكونوا رسل الهداية والتوحيد المطلق لعامة البشر ، فأرسل رسوله فيهم ، فلم شعثهم وجمع شملهم وساقهم هو وأصحابه من بعده الى أملاك كسرى وقيصر ففتحوها ؛ وقام لهم فيها ملك كبير

(١) عن تاريخ مصر الى الفتح العثماني

سيدنا محمد (١)

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف من اكبر أسرة في قريش تزوج والده عبدالله بأمه آمنة بنت وهب من بني زهرة من قريش وتوفي قبل ولادته . ولد عليه السلام بمكة في ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ م وكفله جده عبدالمطلب ثم عمه أبو طالب بعد وفاة جده وكان في صغره وشبيبته مثالا لمكارم الاخلاق حتى سمته قريش الامين لصدقه وأمانته . ولما بلغ خمسا وعشرين سنة تزوج خديجه بنت خويلد من بنى أسد بن عبد العزّي من قريش

وقد حفظه الله قبل رسالته من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها وبغضت اليه الاوثان بغضاً شديداً حتى لم يكن يحضر لها عيداً أو احتفالا مما يقوم به عبادها وحرم شرب الخمر على نفسه مع شيوعها في العرب شيوعا عظيما

ولما بلغ أربعين سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرج الناس من ظلمات الجهالة الى نور العلم وكان ذلك في أول فبراير سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح عليه السلام

جاءه الملك الذي يبلغ الانبياء عن الله رسالته في غار حراء وأقرأه أول آيات نزلت من القرآن وهو قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) وفي هذا اشارة الى أن هذا الدين القويم أساسه العلم والتعليم

ثم نزل عليه بعد ذلك التكليف بدعوة الناس الى الله تعالى بقوله جل ذكره (يا أيها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر)

فقام عليه السلام بأمر الله ودعا لعبادته أقواماً فيهم جفاء وغلظة اتبعوا ما كان عليه آباؤهم من عبادة الاوثان . صدقه عليه السلام جمع قليل من ذوى العقول السليمة منهم أبو بكر الصديق وخديجه بنت خويلد وعلى بن أبي طالب وزيد بن حارثة وغيرهم من السابقين

وكان عليه السلام في بدء الامر يدعو الى الله سراً حتي نزل عليه قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) فامتثل أمر ربه وجهر بدعوة الناس الي دين الله وكان ذلك داعيه الى أن عاداه الرؤساء من قريش تعصباً لما كان عليه آباؤهم وخوفا على رياستهم أن تذهب عنهم . لم يكتفوا بعدم اتباعه بل صاروا يؤذون كل من اتبعه بكل مايقدرون عليه من أنواع الايذاء وآذوا رسول الله

(١) عن كتاب الدروس التاريخية لمحمد الخضري بك

صلى الله عليه وسلم فقابل ذلك هو والمؤمنون بالصبر وتحمل الشدائد في سبيل الله

ولما رأى عليه السلام شدة الاذى على أصحابه أمرهم بالهجرة الى بلاد الحبشة فهاجر اليها في الاول عشرة رجال وخمس نسوة ثم هاجر بعدهم ثلاثة وثمانون رجلا وثماني عشرة امرأة وقد اكرمهم النجاشي ملك الحبشة وآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم

أما الذين بقوا بمكة من الصحابة فقد نالهم من الاذى مالا يمكن احتماله الالمن تمكن الاسلام من قلبه واختلط بدمه ولحمه وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم

وكان يمنع عن رسول الله بعض الاذى عمه أبو طالب وزوجه خديجه فلماماتااشتد الامر وصد المشركون عن سبيل الله وعن الاسلام كل راغب فيه فخرج رسول الله من مكة الي الطائف وبه قبائل ثقيف فعرض على رؤسائهم أن يساعدوه حتى يتم أمر ربه ويبلغ رسالته فردوا عليه رداً قبيحاً ولم يكتفوابذلك بل أوعزوا الى سفهائهم أن يؤذوه عند عودته فصاروا يرمون عليه الاحجار حتى أدموا عقبه وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه وعند ذلك دعا الله قائلا (اللهم انى أشكو اليك ضعف قوتي وهوانى على الناس ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى الى من تكلني ان لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالي) . وحين عودته الى مكة اشتد عليه أذى المشركين وجهلهم

ولما رأى أن قريشاً تمنعه من تأدية رسالة ربه عرض نفسه على قبائل العرب التي كانت تحضر الموسم بمكة كل عام ليحموه حتى يؤدي الرسالة . وكان من الذين يحجون عرب يثرب وهم الاوس والخزرج فتعرض عليه السلام لنفر منهم يبلغون الستة وكلهم من الخزرج ودعاهم الي الاسلام والى معاونته في تبليغ رسالة ربه فآمنوا به وصدقوه وقالوا له انا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم فأن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل

ولما كان العام المقبل قدم عليه اثنا عشر رجلا من أهل المدينة فاجتمعوا به عند العقبة وبايعوه فارسل معهم من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين وقد دخل أهل المدينه في الاسلام أفواجاً بعد اسلام سعد بن مُعاذ وأُسَيْد بن حُضير وهما سيدان من ساداتهم

ولما كان وقت الحج من العام الذي يلي البيعة الاولي قدم كثير من أهل المدينة يريدون الحج وأرسلوا وفدا لرسول الله واعده المقابلة ليلا عند العقبة . فلما حان وقت الموعد توجه اليهم عليه السلام وقد اجتمع منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهناك بايعوه علي أن يعبدوا الله وحده لا شريك له

وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم متي قدم عليهم

وبعد ان تمت هذه البيعة أمر رسول الله أصحابه أن يهاجروا الى المدينة فامتثلوا أمره . ولما رأت قريش ذلك اجتمعت رؤساؤهم في دار الندوة واشتوروا فيما يفعلون برسول الله وأخيرا اتفق رأيهم على أن يقتلوه وهو خارج من البيت بأن يختار من كل قبيلة شاب جلد يضربوبه ضربة رجل واحد حتى يتفرق دمه في قبائل قريش فأعلم الله رسوله بما دبرة الاعداء وأمره بالهجرة الى المدينة فتوجه من ساعته الى دار الصديق أبي بكر وأعلمه ان الله قد أذن له بالهجرة فأعد أبو بكر راحلتين للسفر واختارا دليلا يدلهما على الطريق وواعداه المقابلة ليلا خارج مكة وذلك فى الليلة التي تواعدا المشركون على تنفيذ غرضهم فيها

ولما جاء الموعد امر رسول الله ابن عمه عليا ان يبيت موضعه وخرج من الدار فلم يره بفضل الله أحد فسار هو وأبو بكر حتى أتيا غار ثور فاختفيا فيه ولما أصبح المشركون وعلموا أن الرسول فاتهم أرسلوا الطلب في أثره الي جميع الجهات وجعلوا الجوائز لمن يأتى به فلم يظفروا بما أرادوا

وبعد ثلاثة أيام خرج الرسول والصديق من الغار ولم يزالا سائرين حتي وافيا المدينة فسر أهلها من مقدمه عليه السلام سرورا عظيما فنزل بقباء وكان ذلك في اليوم الثامن من ربيع الاول الذى يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من الميلاد

اعمال مكة

مجمل ما دعا اليه الرسول عليه السلام بمكة أمران (الاول) الاعتقاد بوحدانيـة الله (الثانى) الاعتقاد بالبعث والنشور وان هناك يوماً ثانياً هو يوم الدين يجازى فيه المرء على عمله ان خيراً فخير وان شراً فشر . وبين الله على لسان رسوله مكارم الاخلاق التي لا يكمل ايمان المرء الا بها من الصدق والشجاعة والحياء والشفقة والعفة والصبر وغير ذلك وعلى هذه الامور تدور معظم الآيات التي أنزلها الله بمكة وهى معظم القرآن

أقام عليه السلام بقباء ليالى أسس فيها مسجد قباء الذي وصفه الله في سورة التوبة بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم . ثم تحول الي المدينة والانصار محيطون به متقلدي سيوفهم وخرج النساء والصبيان يقلن

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع

ولما وصل المدينة نزل على أبي أيوب الانصاري واسمه خالد بن زيد ونزل المهاجرون على اخوانهم من الانصار فأكرموا مثواهم وآثروهم على أنفسهم ثم أرسل عليه السلام زيد بن حارثة وأبا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله فقدما بهم ومنع مشركو مكة بعضاً من المستضعفين أن يهاجروا

وفي السنة الاولى من الهجرة بنى عليه السلام مسجده بالمدينة . وفيها شرع الله الأذان لجمع المسلمين للصلاة

هذا وكما ابتلى الله المسلمين بمكة بالمشركين ابتلاهم بالمدينة بالمنافقين وهم قوم أظهروا الاسلام وأضمروا الكفر وباليهود وهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع . وكان من هدى رسول الله عليه السلام أن يقبل من الناس ما ظهر ويترك لله ما بطن فعامل المنافقين بذلك وعاهد اليهود عهداً مقتضاه ترك الحرب والاذى وأنهم لا يعينون عليه أحداً وان دهمه عدو بالمدينة فللرسول عليهم النصرة

مشروعية القتال

كان عليه السلام لا يقاتل أحداً على الدخول في الدين بل كان أمره قاصراً على التبشير والانذار والاقناع بالحجة حتى اذا فعل أهل مكة ما فعلوا من اخراج المسلمين من ديارهم وصدهم عن سبيل الله اذن الله للرسول في قتالهم ولذلك لم يكن يتعرض الا لقريش خاصة . فلما تمالأ على المسلمين غير قريش من مشركي العرب أمر الله بقتال المشركين بقوله (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)

بدء القتال

كان من عادة قريش أن ترسل تجارتها الى الشام لتبيع وتبتاع ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عيراً وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف قريش وسراتهم ولا بد لوصولهم الى الشام من مرورهم على المدينة فرأى عليه السلام أن يصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة لاضعافهم فكان يرسل السرايا لاعتراض هذه التجارات في سفرها

وفي بدء السنة الثانية خرج بنفسه ليعترض عيراً لقريش آتية من الشام يحرسها جمع رئيسهم أبو سفيان بن حرب الاموي ولما علم أبو سفيان بذلك أرسل الى قريش يستنجدهم لحماية عيرهم فنفروا سراعاً وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين رجلا

أما الرسول فلم يكن عنده خبر بخروج قريش حتى اذا بلغ الروحاء جاءه الخبر بذلك فاستشار أصحابه وقال لهم (ان الله قد وعدني احدى الطائفتين العير أو النفير) فتبين له ان بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهى العير ولكن قال له سادتهم وقادتهم أن يمضي لما أمره الله به مهما كلفهم من المصاعب والمشاق

بلغ الرسول عقب ذلك ان أبا سفيان نجا بالعير لانه اتبع طريق الساحل ولكن ذلك لم يرد قريشاً بل صمموا على المجيء الى بدر فنزلوا بعدوته القصوى وجاء جيش المسلمين فنزلوا بعدوته الدنيا

ولما تراءى العسكران ابتدأ بينهم القتال بالمبارزة على حسب العادات العربية ثم تبعه الهجوم وكان النصر التام للمسلمين فقتلوا من أعدائهم نحو السبعين وأسروا منهم نحو السبعين مع ان عدد المسلمين كان أقل من ثلث عدد المشركين

ولما رجع عليه السلام مع أصحابه بأسرى قريش رأى أن يقبل الفدية فيهم فافتداهم أقاربهم ومن كان فقيراً لا فدية له وكان يعرف القراءة والكتابة أعطى عشرة من صبيان المسلمين يعلمهم وكان ذلك فداء له

ولما عاد الى المدينة بلغته خيانة عن يهود بني قَيْنُقاع فدعا رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي فاساؤا الرد وأظهروا العداوة وتحصنوا بحصونهم فسار اليهم عليه السلام وحاصرهم ولما رأوا من أنفسهم العجز عن المقاومة طلبوا من المسلمين أن يكفوا عنهم ويخرجوا من المدينة فأجيبوا وارتاح المسلمون من شرهم . وفي هذه السنة حولت القبلة الى الكعبة بعد أن كانت الصلاة الى بيت المقدس وفيها فرض صوم رمضان وصلاة العيدين وزكاة الفطر وزكاة المال

في السنة الثالثة كانت غزوة أُحُد وسببها ان قريشاً رأت أبواب التجارة قد سدت في وجوههم فأجمعوا أمرهم على تجنيد جيش لحرب المسلمين بالمدينة فجمعوا الرجال وكانت عدتهم ثلاثة آلاف ولما علم الرسول باقترابهم من المدينة خرج اليهم فى شوال حتى نزل الشعب من أحد شرقي المدينة وجعل ظهره للجبل أما المشركون فنزلوا ببطن الوادي من قبل أحد وعبوا صفوفهم ورتب عليه

السلام صفوف أصحابه وجعل على ظهر الجبل خمسين رامياً لحماية ظهر الجيش وأمرهم أن لا يزايلوا امكنتهم مهما كان الامر

وابتدأ القتال بالمبارزة ثم الهجوم فكان النصر أولا للمسلمين حتى شرع المشركون ينهزمون ولما رأى ذلك الرماة الذين على ظهر الجبل تركوا مراكزهم مخالفين أمر رسول الله عليه السلام فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وكان اذ ذاك من قواد المشركين أخذ قطعة من الجند وعلا بها الجبل وجاء المسلمين من ورائهم فدهمهم ما لم يكن لهم على بال ودهشوا وانتقضت صفوفهم حتى صاروا يضرب بعضهم بعضاً وعاد الى المشركين من كان قد انهزم منهم . وكان من نتيجة ذلك ان انهزم كثير من المسلمين الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة من كبراء أصحابه يدافعون عنه بأنفسهم وقد أصابته شدائد كثيرة وأصاب الذين يحوطونه كثير من الجراحات وقتل من المسلمين نحو السبعين منهم حمزة بن عبد المطلب . وهذا الذي أصاب المسلمين سببه أمران (الاول) مخالفة الرسول فيما أمر به (الثاني) اشتغالهم بأمر الغنائم قبل أن يتم لهم النصر

ثم ان أبا سفيان صعد ونادى بأعلى صوته نعمت فعال ان الحرب سجال وموعدكم بدر العام المقبل ثم رجع المشركون الى مكة ولم يعرجوا الى المدينة . فلما عاد عليه السلام الى المدينة أصبح حذراً من عودة المشركين الى الهجوم على المدينة فنادى في أصحابه بالخروج فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح وكان خروجهم سبباً لخوف المشركين وامتناعهم عما كانوا صمموا عليه من تتميم انتصارهم بغزو المدينة

وفي السنة الرابعة كانت غزوة بني النضير وسببها انه كان بينهم وبين الرسول عهود فجاءهم رسول الله في ديارهم يستنجزهم الوفاء بما توجبه تلك العهود اذ ائتمر جماعة منهم على اغتياله فأطلعه الله على قصدهم فعاد الى المدينة وتجهز لقتالهم فحاصرهم ولما رأوا العجز طلبوا منه أن يكف عن دمائهم ويخرجوا من المدينة ففعل وفعلوا ونزل بعضهم بأرض خيبر وبعضهم باذرعات ببلاد الشام . ولما أهل شعبان كان موعد أبي سفيان ببدر فخرج عليه السلام بأصحابه وفاء بالوعد ولكن أبا سفيان تخلف فكان موسم بدر في هذا العام للمسلمين خاصة

وفي السنة الخامسة كانت غزوة الخندق وسببها ان قريشاً جمعت جموعها وحلفاءها تريد غزو المدينة ثانية وكان عدة من خرج منهم عشرة آلاف ولما علم بذلك المسلمون أشار سلمان الفارسي بحفر

خندق حول المدينة يمنع المشركين من الهجوم عليها لحفروه فلما جاء هؤلاء الاحزاب لم يمكنهم عمل شيء الا المراماة بالنبل وحينئذ بلغ رسول الله أن بنى قريظة قد نقضوا عهدهم في هذا الوقت الحرج وان المنافقين أظهروا ما في أنفسهم من البغضاء والحقد فاشتد الامر بالمسلمين . ولكن الله أتم نعمته عليهم بأن أوقع خلفاً بين رؤساء المشركين ورؤساء اليهود فخاف بعضهم بعضاً وصادف ذلك أن أرسل الله ريحاً باردة في ليلة مظلمة فاشتد خوف المشركين وقر رأيهم على الرحيل وترك المدينة فرحلوا وقد أمتن الله على المسلمين بهذه النعمة في سورة الاحزاب

ولما تم رحيل العدو توجه عليه السلام بأصحابه الى بنى قريظه الذين نقضوا عهدهم وخانوا المسلمين في وقت الحرب فحاصرهم ولما سلموا حكم عليهم سعد بن معاذ بقتل رجالهم فقتلوا جزاء خيانتهم وبذلك خلت المدينة من اليهود وامن المسلمون كيدهم

وفى الساعة السادسة كانت عمرة الحديبية وذلك ان الرسول عليه السلام رأى في منامه انه دخل هو واصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فأخبر المسلمين بذلك وانه يريد العمرة فخرج ومعه الف وخمسمائة ومعه الهدي ليعلم انه جاء معتمراً لا محارباً فلما وصل عسفان علم ان قريشاً لا تسلم بدخوله مكة فترددت السفراء بين الفريقين واخيرا تم الاتفاق علي ان يرجع عليه السلام هذا العام ويعود من قابل فيعتمر وان توضع الحرب بين الفريقين اربع سنوات وان كل من وصل الى المسلمين من قريش يردونه ولا يرد المشركون من وصل اليهم من المسلمين وكتبت معاهدة بين الطرفين بذلك ودخلت قبيلة خزاعة فى عهد رسول الله عليه السلام ودخلت قبيلة بكر في عهد قريش

ثم عاد الي المدينة وقد امن كل فريق الاخر وفى مدة هذه الهدنة كاتب عليه السلام ملوك الارض يدعوهم الي الاسلام فمنهم من اجاب جواباً حسناً كالمقوقس ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة وغيرهما ومنهم من أساء الرد ككسرى ملك الفرس

وفى السنة السابعة غزا عليه السلام حصون خيبر في الشمال الشرقى من المدينه وقد كان أهلها من اليهود أعظم مهيج للاحزاب فى غزوة الخندق على حرب المسلمين ففتح حصونهم وأدخلها في حوزة الاسلام ولكنه أبقاها بيد أهلها على النصف مما يخرج منها

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بالمسلمين حسب الشروط بينه وبين قريش فاعتمروا وعادوا . وفي جمادى الآخرة أرسل عليه السلام جيشاً بقيادة زيد ابن حارثة الى مؤتة فلما

وصل اليها وجدوا الروم قد جهزوا لهم جمعاً عظيما من نصارى العرب والمشركين فقامت الحرب بين الفريقين حتي قتل زيد ولما وجد المسلمون قلتهم أمام عدوهم حاربوا متقهقرين حتي نجوا

وفي السنة الثامنة كان فتح مكة وذلك أن قريشاً نقضت العهد بمساعدتها لبني بكر حلفائهم على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار بجيش من المسلمين عدته عشرة آلاف مجاهد حتي اذا قارب مكة رتب الجنود وأمر أحد قواده أن يدخل مكة من أعلى مكة ودخل هو من أسفلها في صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان بدون مقاومة تذكر حتى اذا وصل البيت طاف به سبعاً واستلم الحجر بمحجنه وأنزل الاوثان التى كانت حول الكعبة وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وبذلك طهر المسجد الحرام من هذه المعبودات الباطلة ثم جمع عليه السلام قريشاً الذين آذوه وحاربوه وقال لهم ما تظنون اني فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء عفا عنهم جميعاً بعد القدرة عليهم وهكذا تكون أخلاق الانبياء ومن تبعهم باحسان

وبعد ان تم الفتح علم عليه السلام أن قبائل من هوزان تجمعت لحربه فخرج اليهم بالجنود حتي وافاهم بحنين وكان بينهما قتال عظيم انهزم فيه المسلمون أولا ثم عادوا الى رسول الله ثانيا وهو واقف وسط المعمعة حتي نصرهم الله وهزم عدوهم

ثم سار الى الطائف وحاصره مدة ولكنه عاد عنه لان فتحه لم يؤذن فيه وعاد الى المدينة وفتح الطائف بعد ذلك صلحاً

ولما رأى العرب دخول قريش في الاسلام دخلت فيه أفواجا والى ذلك تشير سورة النصر « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا »

وفي السنه التاسعة خرج رسول الله بجند المسلمين الى تبوك لانه بلغ أن الروم هناك تجمع الجنود لغزوه ولما وصلوها لم يجدوا هناك أحداً فعادوا

وفي السنة العاشرة حج عليه السلام بالمسلمين حجة الوداع ولم يحج غيرها وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة فى جموع تبلغ تسعين الفاً وفي هذه الحجة خطب خطبته المشهورة بخطبة الوداع وصى فيها المسلمين ومنها :

« أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا الاهل بلغت . اللهم اشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامريء مال أخيه الا عن طيب نفس الاهل بلغت . اللهم اشهد فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله ألاهل بلغت . اللهم اشهد أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى الاهل بلغت اللهم اشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب ثم عاد عليه السلام الى المدينة

وفي أواخر صفر جهز عليه السلام جيشاً بقيادة أسامه بن زيد الى أبني حيث قتل زيد بن حارثة للاغارة على من كانوا سبباً في ذلك ولكن لم يخرج هذا الجيش في حياة رسول الله .

في أواخر صفر مرض عليه السلام وأمر أبا بكر أن يصلي بدله بالناس . وفي يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول (٨ يونيو سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بربه بعد ان بلغ الرسالة كما حمل فيكون عمره عليه السلام ٦٣ سنة قمرية وثلاثة أيام و٦١ سنة شمسية وأربعة وثمانين يوماً ودفن صبيحة يوم الاربعاء بعد ان فرغ المسلمون من اقامة خليفة لهم

اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم

أثني الله على نبيه بقوله جل ذكره «وانك لعلى خلق» عظيم وكانت السيدة عائشة أم المؤمنين تقول كان خلقه القرآن ووصفه الله بقوله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»

كان عليه السلام مع ما أتاه الله من وفرة المال بعد الفتوح لايستأثر بشيء منه ولا يمسك منه درهماً بل يصرفه في مصارفه ويغني به غيره حتى توفي ودرعه مرهونة

وكان حليما يحتمل ويعفو عند القدرة عملا بقوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وقوله (واصبر علي ما أصابك ان ذلك من عزم الامور) ولما فعل به المشركون مافعلوا من الايذاء طلب منه أن يدعو عليهم فقال اللهم إغفر لقومي فانهم لايعلمون وحسبك في حلمه وعفوه مافعله بمشركي قريش بعد الفتح

أما الشجاعة والنجدة فكان عليه السلام منهما بالمكان الذى لايجهل : قدحضر المواقف الصعبة وفر عنه الابطال والكماة غير مرة وهو ثابت لايبرح ومقبل لايدبر ولا يتزحزح وما من شجاع الا أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . وحسبك مافعله بأحد وحنين . قال علي بن أبي طالب كنا اذا اشتد اليأس واحمرت الحدق أتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب الى العدو منه

وأما الحياء والاغضاء فكان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن الهفوات اغضاء وكان عليه السلام لطيف البشرة رقيق الظاهر لايشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس وكان اذا بلغه عن أحد مايكره يقول مابال أقوام يصنعون كذا أو يقولون كذا

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع أصناف الخلق فبما انتشرت به الاخبار الصحيحة قال علي كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة وكان يؤلف الناس ولاينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم . وكان يتفقد أصحابه ويعطى كل جلسائه نصيبه لايحسب جليسه ان أحداً أكرم عليه منه . من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب قال تعالى « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » وقال « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم » وكان عليه السلام يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافيء عليها وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويلاعب صبيانهم ويجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضى فى أقصي المدينة ويقبل عذر المعتذر وقال أنس ماالتقم أحد اذن النبي يحادثه فنحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحى رأسه وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر وكان يبدأ من لقيه بالسلام . ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من دخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها ان أبى ولا يقطع على أحد حديثه وكان أكثر الناس تبسما

وأما الشفقه والرأفة والرحمة بجميع الخلق فقد وصفه الله بها . روى ان اعرابياً طلب منه شيئاً فأعطاه فقال الاعرابي ما أحسنت ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا فاشار اليهم الرسول ان كفوا ثم زاد الاعرابي شيئاً فقال الاعرابي أحسنت فجزاك الله خيراً فقال عليه السلام مثلى ومثل هذا

مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفارا فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فاني أرفق بها منكم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الارض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وانى لو تركتكم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار . وقال عليه السلام لا يبلغني أحد منكم عن أصحابي شيئاً فانى أحب أن اخرج اليكم وانا سليم الصدر

و اما خلقه عليه السلام في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم فكان منها بالمحل الارفع روى انه كان اذا اتي بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجه . انها كانت تحب خديجه ووفد عليه وفد فقام يخدمهم بنفسه فقال اصحابه نحن نكفيك فقال انهم كانوا لاصحابنا مكرمين واني احب ان اكافئهم

وكان عليه السلام مع علو منصبه ورفعة رتبته اشد الناس تواضعاً واقلهم كبراً . خرج مرة الي اصحابه وهو متوكيء على عصا فقاموا فقال لا تقوموا كما تقوم الاعاجم

وكان يعود المساكين ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس . وأراد رجل أن يقبل يده فجذبها منه وقال هذا تفعله الاعاجم بملوكها ولست بملك انما أنا رجل منكم .وكان عليه السلام أعدل الناس وأصدقهم لهجة وأكثرهم أمانة وكان يسمى بين قريش بالأمين وكان لا يأخذ أحداً بذنب أحد ولا يصدق أحداً على أحد . وبالجملة فقد انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكارم الاخلاق اتباعاً لما جاء به القرآن الكريم وقد قال عليه السلام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق

معجزاته عليه السلام

معجزات الرسول التى أظهرها الله على يديه تصديقاً له فيما يبلغه عن الله كثيرة وأظهرها شأناً وأوضحها بياناً هو القرآن الكريم وقد عجزت العرب عن محاكاته بعد أن تحداهم بقوله (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) فانظر كيف حتم عليهم العجز مع ان القرآن بلسانهم أنزل وقد كانوا فرسان الكلام وهو جل فخرهم

واعجاز القرآن آت من أربعة أمور (الاول) حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته وبلاغته الخارقة لعادة العرب (الثاني) صورة نظمه العجيب والاسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج

نظمها ونثرها (الثالث) ما انطوى عليه من الاخبار بالغيب مما لم يكن فوقع كما قال كقوله تعالى في سورة الفتح (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين) وقوله في سورة الروم (وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وقوله (ليظهره على الدين كله) وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) فكان ذلك جميعه الى غير ذلك من الآيات الكبرى (الرابع) ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والامم البائدة مع انه عليه السلام لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة وكان كثيراً ما يسأله أهل الكتاب عن الشيء لا يعلم به الا القليل منهم فيخبره الله به على الوجه الحق ومما يدل على ان هذا القرآن ليس من كلام البشر الروعة التي تلحق سامعيه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته قال تعالى (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) وقال (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله)

ومن معجزاته عليه السلام نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته . قال أنس رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حانت صلاة العصر فالتمس الناس ماء للوضوء فلم يجدوه فأتى عليه السلام بوضوء فوضع يده في الاناء وأمر الناس أن يتوضؤا به قال فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤا عن آخرهم فقيل كم كنتم قال زهاء ثلثمائة وروى مثل هذه الحادثة غير أنس من الصحابة

ومن ذلك تكثير الطعام ببركته . روى طلحة انه عليه السلام أطعم ثمانين أو سبعين رجلا من اقراص من شعير جاء بها أنس تحت أبطه فأمر بها عليه السلام فقتت وقال فيها ما شاء الله أن يقول وروى مثل ذلك جابر وغيره

ومنها ابراء المرضى وذوي العاهات فقد أصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجناته فردها عليه السلام فكانت أحسن عينيه وأحدّهما . وقد رمدت عين علي في غزوة خيبر فمسح عليها فزال رمدها . الى غير ذلك من الآثار التي رويت في الصحاح

ومن ذلك ما من الله عليه به من اجابة دعواته وما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن فقد وعد أصحابه بالظهور على أعدائهم وفتح بيت المقدس واليمن والشام والعراق فكان ذلك كله صلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه ووفقنا للاقتداء به في أخلاقه الكريمة

ذكر الخلفاء الراشدين [1]

خلافة أبي بكر

لما قبض النبي اجتمع المهاجرون والانصار للمبايعة فارتفعت الاصوات وكثر اللغط فقام عمر وقال لابى بكر أبسط يدك فأبايعك فبسط يده فبايعه و بايعه المهاجرون والانصار فسكنت الفتنة و بو يع له في شهر ر بيع الاول سنة احدى عشر هجرية ٦٣٢ م يوم توفي النبي صلي الله عليه وسلم وكانت المبايعة بسقيفة بنى ساعدة فكان أول خليفة في الاسلام وكان من سادات بنى هاشم وأشرافها ولما ذاع خبر وفاة النبي ارتد خلق كثير من العرب ومنعوا الزكاة واشتد رعب المسلمين بالمدينة لاطباقهم علي الردّة فأمّر أبو بكر خالد بن الوليد المدعو سيف الله على الناس و بعثه في أر بعة آلاف وخمسمائة فسار حتى وافي المرتدة وناوشهم القتال وسبى ذراريهم وقسم أموالهم وفي أيامه ظهر الاسود العنسى ومسيلمه الكذابان وكان الاسودُ هذا غلب على صفاء وحضرموت الى عمل الطائف الى البحر ين وادّعى النبوة وطابقت عليه اليمن وجعل يستطير استطارة الحر يق فبعث أبو بكر رجالا لمقاتلته فقتلوه وأراح الله الاسلام من شره ثم ظهر مسيلمة الكذاب وأوقع أعظم فتنة في أهل اليمامة وكان يؤذن له و يشهد له بالرسالة وكان يسجع لقومه باسجاع يزعم أنها قرآن يأتيه فأمر أبو بكر خالد بن الوليد بالمسير الى محار بته فسار اليه وقتله ومن هناك توجه خالد الى أرض العراق فزحف الى الحيرة ففتحها صلحاً وكانت أول بلدة افتتحت من العراق وقد كان أبو بكر وجه قبل ذلك أبا عبيدة بن الجراح في زهاء عشر ين الف رجل الى الشام و بلغ هرقل ملك الروم ورود العرب الى أرض الشام فوجه اليهم سرجيس البطر يق في خمسة آلاف رجل من جنوده وكتب أبو بكر الى خالد عند افتتاحه الحيرة يأمره أن يسير الى أبى عبيده بأرض الشام ففعل والتقى العرب والروم باجنادين فانهزم الروم وقتل سرجيس البطر يق

وكان لابى بكر منزل في السنح فأقام هناك ستة أشهر بعد مابو يع له بالخلافة وكان يغدو على رجليه الى المدينة فيصلي بالناس فاذا صلي العشاء رجع الى السنح وكان اذا غاب صلي بالناس عمر وكان يغدو كل يوم الى السوق فيبيع و يبتاع لانه كان من أهل التجارة ثم تحوّل الى المدينة بعد ستة أشهر من خلافته وقال ما تصلح أمور الناس مع التجارة وما يصلح الا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم فترك التجارة وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم فلما حضرته الوفاة أوصى أن تباع أرض له و يصرف ثمنها عوض ماأخذه من المسلمين وهو أول وال فرضت له رعيته نفقته وأول من سمي خليفة وأول من جمع القرآن في صحف أخذاً عن أذهان الحفظة الذين سمعوه من فم صاحب الشر يعة الاسلامية وكان أبو بكر أعف النـاس وأشجع الصحابة وأجودهم وأعلمهم وأذكاهم وأفضلهم واشهر في التواضع والزهد حتى قيل ان لبسه في خلافته كان الشملة والعباءة ولما حضرت أبا بكر الوفاة قال لعائشة جاءت سكرة الموت بالحق ثم قال منذ ولينا أمر المسلمين لم نأ كل لهم دينارا ولا درهما ولكنا أكلنا من

[1] عن تاريخ العرب وآدابهم لجامعيه أدور فانديك وقسطنطين فيلبيدس

جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فيء المسلمين الا هذا العبد وهذا البعير وهذه القطيفة فاذا مت فابعثي بالجميع الي عمر ومات رضى الله عنه سنة ثلاث عشرة للهجرة بعد توليه للخلافة بسنتين وأربعة أشهر وهو ابن ٦٣ سنة

خلافة عمر

ثم قام بالامر بعده عمر بن الخطاب بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر أى يوم الاثنين لثمان خلون من جمادي الآخرة من سنة ١٣ هـ ٦٣٤ م فقام بعده بمثل سيرته وجهاده وثباته وصبره على العيش الخشن والقناعة باليسير وفتح الفتوحات الكبار والاقاليم الشاسعة وهو أول من سمي بأمير المؤمنين فأرخ التاريخ ودون الدواوين ومصر الامصار وهو أول من عس في عمله لحفظ الدين والناس وهابه الناس هيبة عظيمة وزاد فى الشدة في مواضعها واللين في مواضعه ولما ولى الامر لم يكن له همة الا العراق فعقد لعبيد بن مسعودة على زهاء ألف رجل وأمره بالمسير الى العراق فعبروا اليها فزحف اليهم العجم فتناجزوا من وقت الزوال الي أن توارت الشمس بالحجاب فحمل العرب حملة رجل واحد وقتلوا مهران قائدهم فانهزم العجم لاحقين بالمدائن وفى خلافة عمر فتح أبو عبيدة وخالد دمشق بعد حصار سبعة أشهر فخرج أهل دمشق و بذلوا الصلح لابي عبيدة فأمنهم وصالح أهل طبرية وقيسارية و بعلبك وعلى يد عمر انتهى الفتح الى حمص والرها وماردين وطرابلس وعسقلان وما يليها من الساحل وبيت المقدس وفتح عمرو بن العاص مصر عنوة وفتح الاسكندرية صلحاً حتى هاب عمر ملوك فارس والروم ومع ذلك كله بقى علي حاله كما كان قبل الولاية في لباسه وزيه وأفعاله وتواضعه يسير منفردا من غير حرس ولا حجاب لم تغيره الامرة ولم يستطل على مسلم بلسانه ولا حابى أحدا فى الحق وكان لا يطمع الشريف في حيفة ولا ييأس الضعيف من عدله ومات عمر يوم الاربعاء لخمس بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ قتله أبو لؤلؤة المجوسي وكان عمره ثلاثا وستين سنة وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام وكان هذا الخليفة بمكان عظيم من العدالة شديد الحرص فى حماية الدين وحقوق الخلافة فقال ذات يوم وهو على منبر الخطابة أيها الناس من رآى منكم فيَّ اعوجاجا فليقوّمه فقام رجل من وسط الجماعة وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بحد السيوف. فقال أحمد الله الذي جعل في هذه الامة العربية من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه

خلافة عثمان

ولما انقضى عهد عمر بن الخطاب قام باعباء الخلافة عثمان بن عفان بويع له بالخلافة في أول يوم من سنة ٢٤ للهجرة ٦٤٤ م وكانت له شفقة ورأفة بالرعية وافتتحت في أيامه أفريقية وغزا معاوية قبرص وأنقره فافتتحها صلحاً وانتزع عثمان عمرو بن العاص عن الاسكندرية فأمر عليها أخاه لامه ثم ان الناس أنكروا على عثمان أشياء منها كلفه باقاربه فحنقت العرب على ذلك وجمعوا الجموع ونزلوا على فرسخ من المدينة و بعثوا الى عثمان من يستعتبه و يقول له اما أن تعتدل أو تعتزل وكان أشد الناس على عثمان طلحة والزبير وعائشة وكتب عثمان اليهم كتاباً يقول فيه انى أنزع عن كل شيء أنكرتموه وأتوب الى الله فقبلوا منه ثم اشتد عليه الحصار عشرين يوماً حتى تسور

عليه ثلاثة منهم حائط داره فضربه أحدهم بمشقص في أوداجه وقتله الآخر والمصحف في حجره وكانت خلافته اثنى عشرة سنة وعمره نيف وثمانون سنة

خلافة علي

ولما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والانصار وأتوا عليا بن أبي طالب يبايعونه فأبى وقال لان أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا ومن اخترتم رضيته فألحوا عليه وقالوا لا نعلم أحق منك حتي غلبوه في ذلك فخرجوا الى المسجد و بايعه الناس يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ٦٥٦ م ثم ادعى الزبير بن العوام وطلحة الاكراه بعد ذلك وناوأا علي فلحق علي بهم وناجزهم الحرب وقتل طلحة وأما الزبير فقتل عند منصرفه بعد أن ذكره علي بحديث منه لتقاتلنه وأنت ظالم له وسميت هذه الوقعة وقعة الجمل ثم بعد وقعة الجمل دعا معاوية أهل الشام الى قتال علي ومن معه بدعوى أن عليا يعلم قتلة عثمان ولم يقتص منهم فخرج علي من الكوفة واقتتلوا قتالا شديدا في صفين ثم تهادنا وافترقا ثم تعاهد شبيب وابن ملجم على قتل علي وكمنا له في المسجد فلما خرج علي ونادى بالصلاة علاه شبيب بالسيف وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه فدعا علي قبل موته الحسن والحسين ابنيه ووصاهما وقال أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تأسفا على شيء زوى منها عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا ولا تأخذكما في الله لومة ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ثم قبض وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهرين وقيل خمس سنين الا ثلاثة أشهر وكان الامام علي من الفرسان المشهورين وهو ابن عم رسول الله وصهره وزوج ابنته فاطمة وكان قد وقع بسببه بين الاسلام اختلاف من جهة ترتيب الخلافة بعد الرسول فأهل السنة يعتبرون ان هذا الترتيب الذي جرى لغاية خلافة الامام علي كان على حقه والشيعة يقولون ان علي ابن أبي طالب كان الاحق بالتقدم في الخلافة وكل فريق منهم يورد دلائل وبراهين لتأييد مدعاه وقد وصفه ضرار بن ضمرة قال كان علي بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته غزير العبرة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب وكان فينا كاحدنا يجيبنا اذا سألناه ويأتينا اذا دعوناه ونحن مع تقربه لا نكاد نكلمه هيبة له لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ولما قتل علي اجتمع أصحابه بالكوفة فبايعوا ابنه الحسن سنة ٤٠ للهجرة ٦٦١ م وبويع معاوية بالشام فسار الحسن الى المدائن واستقر بها خمسة أشهر ولما رأى المناوشة بين أصحابه قال لا حاجة لي في هذا الامر وقد رأيت أن أسلمه الى معاوية فيكون في عنقه تبعته وأوزاره فقال له الحسين أخوه أنشدك الله أن لا تكون أول من عاب أباه وزغب عن رأيه فقال لا بد من ذلك وقد اخترت العار على النار وبعث الي معاوية بتسليم الامر اليه واشترط عليه شروطا فأجابه معاوية الى ما التمسه منه فسلم الامر الي معاوية وبايع له لخمس بقين من ربيع الاول سنة ٤١ هجرية ٦٦١ م وذلك لانه رأى المصلحة في جمع الكلمة وترك القتال وهو آخر خليفة من الخلفاء الراشدين وزمن ملكهم من سنة ١١ هجرية الى سنة ٤١ منها ٦٣٣ — ٦٦١ م وتعرف مدة الخلفاء الراشدين بزمن الفتوحات

وتمصير الامصار فى هذا الزمن كانت الفتوحات الكبيرة واكثرها فى أيام الخليفة عمر بن الخطاب قد علمنا مما مر ان أول فتوحات الاسلام كان افتتاح الحيرة في ايام أبي بكر الصديق على يد خالد بن الوليد ولما ولي الخلافة عمر بن الخطاب افتتح العراق علي يد عبيد بن مسعودة ثم افتتح دمشق على يد أبى عبيدة وخالد بن الوليد بعد حصار سبعة أشهر ثم افتتح طبرية وقيسارية و بعلبك وعلى يد عمر انتهى الفتح الى حمص والرها وماردين وطرابلس وعسقلان وما يليها من الساحل و بيت المقدس وعلي يد عمرو بن العاص فتح مصر عنوة والاسكندرية صلحا ثم كان افتتاح اصفهان على يد عبدالله بن نديل وافتتاح نهاوند على يد جرير البجلي وفي أيام الخليفة عثمان بن عفان ثم افتتاح أفريقية وقبرص وأنقره وفي زمن الفتوحات كان تمصير مدينتي البصرة والكوفة و بناء الجامع الاقصى في مدينة القدس ففي أول خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٤ هجرية أمر أبا موسي الاشعري أن يبتني بأرض البصرة خططا لمن عنده من العرب ويجعل كل قبيلة في محله فابتنوا المنازل لانفسهم و بنى بها مسجدا جامعاً متوسطاً وعند فراغه من بناء مدينة البصرة أسكن فيها ذرية من كان بها من العرب وكان موقعها في العراق عند مجتمع نهري دجله والفرات على شطر نهر العرب الا ان موقع مدينة البصرة الآن ليس في المحل الذي بنيت فيه أيام الخليفة عمر بن الخطاب وفي السنة السابعة عشرة من الهجرة بنى الخليفة عمر مدينة الكوفة

اللغة والآداب في زمن الفتوحات

ان لغة العرب قبل الاسلام كانت متشعبة الى لغات متعددة أعمها لغة قريش ولغة حمير وكانت الاولى مستعملة فى مكة وما جاورها أي في أقليم الحجاز والثانية ببلاد اليمن فلما نزل القرآن بلغة قريش غلبت على لغة حمير و باقى اللغات فكانت هي اللغة المتداولة في المكاتبات والاشعار و بعد الهجرة بثلاثين سنة فاضت وانتشرت في أكثر الاقاليم التي افتتحها المسلمون زمن الفتوحات أما الاقاليم التي انتشرت فيها هذه اللغة فهي أولا بلاد اليمن وسوريا وفلسطين وما بين النهرين ومصر ثانيا بلاد فارس وما وراء نهر جيحون أما في القسم الاول من البلاد المذكورة فقد تغلبت اللغة العربية على لغاتها الاصلية حتى لم يبق منها الا النزر القليل كلغة الاقباط في كنائسهم ولغة السريان والنساطرة فى سورية و بلاد الموصل واما في القسم الثاني فلم تعم عامة الناس بل بقيت مقتصرا عليها بين اهل الدين والعلم والشرع والتجارة في بعض الجهات منها وذلك بحسب كثرة او قلة عدد العرب الذين حلوا فيها زمن الفتوحات

وفي ايام الخليفة على بن ابى طالب خيف على لغة العرب ان تضمحل مع الزمن بسبب مخالطة العرب للعجم فأمر على بن ابى طالب ابا الاسود الدؤلى احد وجوه التابعين وفقهائهم ان يضع اصولا لنطق اللغة العربية بعد ان املى عليه ان الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ومن حينئذ رسم اصول النحو كلها فنقلها النحويون وفرعوها فكان كتابه اول كتاب وضع في الاصول المذكورة الا انه لم يصل الينا والذي وصل الينا مما سبق وضعه في ذلك هو كتاب سيبويه اما الآداب التي كانت منتشرة منذ ايام صاحب الشريعة الاسلامية الي نهاية زمن الخلفاء الراشدين فهي القرآن والاحاديث النبوية والاشعار

فأما القرآن فهو اول كتاب عربي سطر في المصاحف وحفظ على ما هو عليه منذ نطق به صاحب الشريعة الاسلامية الى يومنا هذا وكان القرآن الى زمن خلافة ابي بكر باقيا في مستودع صدور الحفظة الذين سمعوه من فم صاحب الشريعة الاسلامية فاعتنى هذا الخليفة بجمعه في صحف من سعف النخل والجلود وعظام الحيوانات وجعل هذا المجموع عند حفصة وكان ذلك باشارة عمر بن الخطاب خوفا عليه ان يذهب كثير منه بموت الحفظة الذين كانوا يقتلون في الجهاد وكلف زيد بن ثابت بجمعه فجمعه

وفي مدة خلافة عثمان بن عفان وقع اختلاف في القراءة بين الحفظة فجاء حذيفة بن اليمان الى الخليفة وأخبره بذلك فأمر زيد بن ثابت المذكور وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالله بن الحارث بن هشام بان ينسخوا الصحف الموجودة عند حفصة في المصاحف وقال لهم اذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان تلك الصحف الى حفصة حيث كانت محفوظة أولا وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أن يحرق ولعل هذه المصاحف كتبت بالخط الحيرى اذ لم يكن الخط الكوفى قد شاع استعماله بعد وكانت الكتابة على الرق اذ لم يكن الورق معروفاً عند العرب بعد وآداب القرآن مشهورة فهو منبع الآداب والفصاحة والبلاغة واللغة والانشاء والشرائع واليه منتهى العلوم العربية

الفتوح الاسلامية (١)

التحام العرب مع الفرس والروم

كان النبي صلى الله عليه وسلم يبشر المسلمين طول مدة رسالته بفتح ممالك فارس والروم . وشرع في ذلك آخر حياته ليقتدي به خلفاؤه من بعده ، فغزا بنفسه غزوة « تبوك » وأغزى أصحابه غزوة « مؤتة » ، وخرج من الدنيا وقد جهز جيشاً أمر عليه مولاه « أسامة بن زيد » فبرز خارج المدينة لحرب الروم ، وأوصى في مرضه بانفاذه الى الشام . فأنفذ « أبو بكر » وصيته ، وسير هذا الجيش فغزا القبائل الموالية للروم في جنوبي الشام وعاد بعد أربعين يوماً

ومن ذلك الوقت شرع أبو بكر في تحقيق بشارة النبي واستنجاز وعده . ولثقته بايمان أصحابه وعلو هممهم على قلة عَدَدِهم وعُددهم رأى أن يغزو بهم الفرس والروم في آن واحد . ونفذ « عمر » بعده خطته على ما فيها من المصاعب وتفريق القوة فأعقبت النجاح والظفر ، وأكمل بقيتها الخلفاء الراشدون وبنو أمية وبنو العباس . حتى كان لهم من نشر دينهم واتساع ملكهم ما استطالوا به على أكثر الممالك العظيمة في تلك العصور :

(١) عن تاريخ مصر الى الفتح العثمانى

(٤) فتح فارس : من سنة ١٢ الى سنة ٢١ هـ (٦٣٣ — ٦٤٢ م)

لما فرغ أبو بكر من حرب المرتدين ، ودانت جزيرة العرب للاسلام رأى أن يشغل العرب بعدها عن الفتن الدينية والسياسية بسوقها الى الممالك الغنية الخصبة المجاورة لها لعلمه بما فيها من الفتن الداخلية . فجهز لغزو فارس جيوشاً متفرقة جعل قيادتها العامة لخالد بن الوليد . ففتحوا العراق والجزيرة . ثم أرسل أبو بكر الى خالد أن يذهب فى نصف الناس لانجاد عسكر الشام . وبقى أحد قواده « المثنى بن حارثة » يحارب الفرس حتي مات أبو بكر . فأمده عمر بجيش ، فحاربوا في جملة وقائع انتصروا في بعضها وأصيبوا في آخر حتى ملك « يزدجرد » ، فجمع أبطال الفرس وصناديدهم في جيش بلغ ١٢٠ الف مقاتل . وعلم ذلك عمر فجمع أشراف العرب وفرسانها وخطباءها وشعراءها وجعل على الجميع أميراً « سعد بن أبي وقاص » القرشي . فبلغ عدد المسلمين بضعة وثلاثين الف رجل فالتقوا بالفرس سنة ١٤ هـ (٦٣٦ م) بالقرب من « القادسية » فى موقعة فاصلة من أشد الوقائع ، لم يفلح بعدها الفرس في موقعة ، فقتلت أبطالهم وشجعانهم وقائدهم العظيم « رستم » . وغنم المسلمون معسكر الفرس وراية مملكتهم ، وكانت من جلد مستتر بالجواهر الكريمة

وفي هذه السنة بعث عمر « عتبة بن غزوان » في جمع الى « الابلة » (مرفأ السفن على شمالى بحر فارس) ، فافتتحها وهزم حامية الفرس مراراً في جنوبي العراق ، واختط مدينة « البصرة » ، وبعث بالغنائم الى عمر . وأعجب المسلمون بذلك ، فأقبلوا على البصرة تباعاً . ولما فرغ سعد من أمر « القادسية » واستراح جيشه خرج الى « المدائن » (اكتسيفون) عاصمة الفرس وبها ايوان كسرى العظيم . فهزم في طريقه اليها جموعاً كثيرة للفرس وحاصر المدائن الغربية ، ثم عبر بجيشه الى الشرقية وحاصرها . ففر « يزدجرد » في خاصته وبقية عساكره الى « حلوان » بعد أن أباح بيوت المال والذخائر لقواده ، وخلف أخا رستم على المدائن . فشدد العرب عليهم الحصار فهرب من في المدينة ودخلها العرب سنة ١٦ هـ (٦٣٧) م وأمر سعد أن يلحقوا حملة الاموال والنفائس فأدركوا كثيراً منهم ، ووضعوا أيديهم على خزائن الفرس مما لا تقدر قيمته ، وكان في ذلك تاج كسرى ومنطقته وسواره ودرعه وبساطه (وكان ستين ذراعاً في مثلها ، وكان على هيئة روضة قد صورت فيه الازهار بالجواهر المختلفة الالوان على نسيج الذهب) واستولى العرب كذلك على ذخائر الملوك الذين قهرتهم فارس وأقام سعد بالمدائن مدة . وبعث بالجيوش ففتحت بقية البلاد . وفي سنة ٢١ هـ

(٦٤٢) م جمع « يزدجرد » جميع من في فارس وخراسان من المقاتلة وانضم اليهم بقية المنهزمين ، فاجتمع له ١٥٠ ألفاً فتحمسوا وصمموا على اخراج العرب من بلادهم . فبلغ (عمر) ذلك فخاف على المسلمين وأمدهم بجيش عليه (النعمان بن مقرن) ، فساروا وانضم اليه ثلث من في العراق وقصدوا الفرس في نحو ٣٠ ألفاً فالتقوا بهم قرب (نهاوند) في موقعة لم يقع للعرب مثلها ، قاوم الفرس فيها مقاومة عظيمة ، وقتل فيها (النعمان بن مقرن) فتولى مكانه (حذيفة بن اليمان) ، وحمل بالناس فانهزم الاعداء وفتك العرب بهم فتكاً ذريعاً ، ولم يفلت منهم الا القليل . وتسمى واقعة (نهاوند) هذه بفتح الفتوح اذ لم يكن للفرس بعدها اجتماع ، ودخلت مملكتهم جميعاً في حوزة المسلمين

أما (يزدجرد) فما زال يفر امام العرب من بلد الى بلد حتى قتل أثناء فراره زمن عثمان سنة ٣١ھ (٦٥١ م) . وبموته انقرض آل ساسان

(٢) فتح الشام

بعد أن سير أبو بكر خالداً الى العراق بقليل سير أربعة جيوش الى بلاد الشام لغزوها من جهات مختلفة . فساق (هرقل) قيصر الروم على كل جيش جيشاً أضعافه في العدد فرأى قواد جيوش المسلمين الاربعة أن يجتمعوا في بسيط واحد . فعلم ذلك هرقل . فأمر جيوشه أن ينزلوا على نهر (اليرموك) . فنزلوا بين النهر وبين واد عميق كأنه خندق يعرف (بالواقوصه) في أكثر من ٢٠٠ الف مقاتل سنة ١٣ ھ (٦٣٤ م) ،

وكأنهم رأوا أن الوادي والنهر يحميان جانبيهم . ونزل العرب أمامهم على نفس الضفة من النهر، فصار الروم كأنهم محصورون ولا طريق لهم الا على العرب . وحفر الروم بينهم وبين العرب خندقا وطاولوهم في القتال ليضروا على العرب ولا يخشوا بأسهم . وبقوا كذلك ثلاثة أشهر كاتب العرب فيها أبا بكر واستنجدوه . فكتب الى خالد بن الوليد أن يمدهم بنصف عسكر العراق . فسار مسرعا

---

(١) سلك خالد هذه المفازة المهلكة المعدومة المياه لجملة وجوه حربية وغيرها أهمها سرعة نجدته لجند الشام بقصر مسافتها عن الطريق المعتاد سلوكه على شاطىء الفرات ، وتجنب العوائق التي تعترضه في الطريق المعتاد لاعتراض كثير من حصون الجزيرة وشمالي الشام له وحكاية اختراق جيشه هذه البادية أعجب من اختراق جيش نيبال جبال الالب . فلتراجع في كتب التاريخ المطولة

(٢) وهي مدينة صغيرة شرقي الشام على أبواب الصحراء

سالكا بادية السماوة (١) حتي بلغ الشام ففتح في طريقهِ مدينة (بصري) (٢) وانضم الى معسكر المسلمين . فتكامل به عددهم نيفاً وأربعين الفا . ورآهم خالد متساندين كل رئيس منهم مستقل برأيه وجماعته ، فجمعهم على أن يتولى كل أمير القيادة يوماً . وبدأ هو باليوم الاول فعبأ جيشه تعبئة لم يسبق للعرب مثلها : فرقهم ٣٨ كردوساً وهاجم بهم الروم فخرجوا من خندقهم . فهجم خالد بقلب الجيش . ففرق بين فرسانهم ورجالتهم . ورأى فرسانهم انهم صاروا في وسط العرب ، ففروا الى الصحراء ، وأوسع لهم المسلمون الطريق ، واكتفوا شرهم ثم أطبقوا على الاعداء ، فردوهم الى خندقهم ، بل اقتحموه عليهم ، وأقبل الليل فلم توقف العرب القتال ، وحصروا الاعداء فتساقطوا في الهوة من جانب وفي النهر من الآخر : وقتل منهم غرقا وترديا اكثر مما قتل بسيوف العرب وتم النصر للمسلمين ولم ينج من الروم غير فرسانهم الا القليل وكانت هذه الموقعة أعظم الوقائع بين الروم والعرب ، فلم يثبت لهم بعدها أمام العرب جيش ولو كثر عدده . وفي أثناء تلك الموقعة جاء البريد بموت أبي بكر وعزل خالد عن قيادة الجيش وتولية أبي عبيده قيادته فقبل خالد ذلك بالسمع والطاعة . ونصح لابي عبيدة في الرأى والجهاد . وساروا لفتح دمشق فحاصروها ٧٠ يوما وفتحها خالد عنوة من جانب وبينما هو يتقدم داخلها خرج محافظ المدينة وقابل ابا عبيدة من جانب آخر وسلمها له صلحاً سنة ١٤ ﻫ ٦٣٥ ميلادية وبعث أبوعبيدة الجيوش لفتح سائر مدن الشام ، ففتحوا بلاد الساحل ومدينة حمص واللاذقية وقنسرين وحلب وأنطاكية . وكان هرقل يتنقل من في مدن سورية الحصينة يراعي جيوشه . فلما أوغل المسلمون في الجهات الشمالية صعد على نشز من الارض ثم التفت الى الشام وقال : « السلام عليك ياسورية سلام لا اجتماع بعده » ، وهرب الى القسطنطينية

وكان جيش من المسلمين يقودهم عمرو بن العاص ذهبوا لفتح بيت المقدس، فالتقوا في طريقهم بالروم في موقعة عظيمة تعرف بموقعة أجنادين هزم الروم فيها هزيمة شنيعة .ثم حاصروا بيت المقدس أربعة أشهر ، وأبي بطريقها أن يسلم المدينة الا على يد الخليفة عمر ليكتب بنفسه شروط الصلح ،فحضر عمر الى الشام وتسلم المدينة سنة ١٥ ﻫ (٦٣٦ م) وأسس مسجده على الصخرة . وخرج عمر الى الشام ثلاث مرات غير هذه المرة . وتم فتح الشام في أقل من ست سنوات

وفي سنة ١٨ ﻫ (٦٣٩ م) حدث في الشام طاعون عظيم يسمى طاعون عمواس مات به ٢٥ ألفاً من الصحابة منهم أبو عبيدة

(٣) فتح مصر

لما قارب فتح الشام الانتهاء استأذن (عمرو بن العاص) أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) في فتح مصر، ووصف له ثروتها وهون عليه أمرها، فامتنع (عمر) باديء بدء، ثم بعثه (والتردد يخالجه) في أربعة آلاف أو أقل، وقال له: (سيأتيك كتابي سريعاً ان شاء الله، فان أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره)

فلم يكد عمر يتجاوز الحدود المصرية حتي جاءه كتاب (عمر) فواصل السير حتي بلغ «الفرما» فى أواخر سنة ٦٣٩ م ١٨ ﻫ فقاوم الروم فيها مقاومة ضعيفة حتى ان العرب مع قلة عددهم وندرة ماعندهم من آلات الحصار استولوا عليها عنوة في شهرين

ولما أمن (عمرو) طريق الاتصال بالشام أجد السير في طريق المواضع التي تعرف الآن (بالقنطرة والقصاصين والتل الكبير) حتى نزل على (بلبيس) فحاصرها شهراً ثم فتحها بعد قتال شديد وعند ذلك انضم الى عسكره كثير من بدو الصحراء فعوضوا ما خسره من جيشه الصغير

ثم سار حتى وصل الى قرية على النيل تدعى (أم دنين) (موقعها الآن ما بين عابدين والازبكية بالقاهرة) (١). وكان معظم الجيوش الرومانية حينئذ ممتنعة في حصن بابليون، ولكن الحامية الرابطة فى (أم دنين) عاقت (عمراً) عن التقدم بضعة أسابيع حدثت فيها مناوشات عديدة انتهت باستيلاء عمرو عليها

ولما رأى عمرو ان ما معه من المقاتلة لا يكفي لفتح حصن بابليون أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد، فخرج في غارة الى الفيوم (وتلك مخاطرة كبيرة)، فعبر النيل في قوارب وسار بطريق منف الى الفيوم، فلم يفلح فى الاستيلاء عليها، الا ان هذه الخرجة انتهت بما قصد اليه، فانه عند ما عاد الي عين شمس في صيف سنة ٦٤٠ م لحق به المدد الذي بعثه أمير المؤمنين وفي مقدمته الزبير ابن العوام وعدتهم ١٢٠٠٠ مقاتل

وانتهز الروم فرصة تغيب عمرو بالفيوم فاستولوا ثانية على «أم دنين» ثم أعد تيودروقائدهم نحو ٢٠٠٠٠ مقاتل وأراد مناجزة العرب، فزحف الى عين شمس قاعدة الجيش العربي. فوضع عمرو

---

(١) يعلم من ذلك أن النيل غير مجراه منذ ذلك العهد وتحول الى الغرب

كميناً من جيشه في موضع خفي بالقرب من الجبل الاحمر (١) وآخر في النيل قريباً من أم دنين ، ولاقى تيودرو بالفريق الاكبر من الجيش . فلما حمى وطيس الحرب ثار الكمينان على جناحي الجيش الروماني وساقته فسحقوهم سحقاً ، ولم يبق للروم منهم سوى ٣٠٠ مقاتل وفقد الآخرون ما بين قتيل وهارب . واستولي عمرو بهذه المعركة على مدينة مصر (٢) فانفسح امامه السبيل لاتمام اخضاع الفيوم والشروع في محاصرة حصن بابليون

وكان القائد الحقيقي للجنود الرومانية في حصن بابليون وقتئذ هو « سيروس » بطريق الطائفة الملكانية بالاسكندرية والحاكم الاداري لمصر وهو المعروف عند العرب بالمقوقس (١)

وقد كان له يد عاملة في هذا الفتح ، ومضي عليه عشر سنين وهو مكروه من الاقباط لاضطهادهم لهم فلما حاصر العرب الحصن كان النيل ماداً أواخر أغسطس وليس لهم من آلات الحصار والحيل الهندسية مايسهل عليهم اقتحام الحصن ، على عكس ما كان لعدوهم من ذلك فوق امتلاء الخنادق بمياه الفيضان ، ولما أخذ النيل في الهبوط في شهر اكتوبر أخذ المقوقس ييئس من رد العرب عن البلاد ، وسعى سرا في عقد صلح معهم في جزيرة الروضة فلم يرض « عمرو » منه الا بخصلة من ثلاث وهي الاسلام أو الجزية أو القتال . ثم كتبت المعاهدة وأرسلت الى أمبراطور الروم لاقرارها فسخط هرقل وأخذته دهشة من التسليم لبضعة آلاف من المسلمين فاستدعي المقوقس الى القسطنطينية في الحال نوفمبر سنة ٦٤٠ م فواصل العرب حصار الحصن بنشاط جديد وجمع تيودور جيشا جديدا في الوجه البحري يحاول به فض الحصار عن الحصن فلم يستطع شيئاً حتي ولا الدنو من الحصن . وفي شهر مارس سنة ٦٤١ م سمع المحصورون ضجة فرح في معسكر المسلمين وبان لهم انها كانت لموت هرقل فقت ذلك في عضد الروم وأوهن عزائمهم

وفي ٦ ابريل سنة ٦٤١ م عمد الزبير الى تسور الحصن بسلم كبير ولما صار في أعلى السور تبعه

---

(١) شرقي العباسية

(٢) اختلف في موقع هذه المدينة وحقيقتها . والارجح انها كانت امتداد مدينة منف على شاطيء النيل الشرقي . ومبانيها تمتد شمالي الحصن وجنوبيه

(٣) وفي المقريزى انه يسمي « المقوقس بن قرقت » ولعله محرف عن « سيروس » لان حرف (C) ينطق به قافا في العربية كثيرا

الناس ، فلم يسع الروم الا التسليم علي شريطة أن ينجوا بحياتهم فقبل عمرو ذلك وأمهلهم ثلاثة أيام يجلون فيها عن الحصن ومن الغريب ان الاحزاب الدينية بالحصن لم يلههم ماحاق بهم عن الخصام في الدين فان الطائفة الملكانية قضت يوما من أيام المهلة الثلاثة في تعذيب الاقباط الذين سجنوا فى الحصن قبل الحصار حتى انهم قطعوا أيديهم وأرجلهم

ولما أخلى الروم الحصن بادر عمرو الى اتمام فتح البلاد فسار الى الاسكندرية واستولى فى طريقه على مدينة نقيوس(١) وكان تيودور قد جمع فلول جيشه معززا بعدد كبير فالتقى العرب بالقرب من دمنهور فى موقعة عظيمة دامت اكثر من عشرة ايام واضطر الروم بعدها الى التحيز الى الاسكندرية فاقتفى العرب آثارهم وكانت الاسكندرية عظيمة التحصين وبها من الروم ٥٠٠٠٠ مقاتل وكان يتوقع ان تصد العرب زمناً طويلا فلا هى ضعيفة التحصين حتي يأخذها العرب عنوة ولا هم يستطيعون فى قلة عددهم حصرها براً وبحراً لذلك ترك عمرو جيشاً بظاهرها يوليو سنة ٦٤٠ م يرقبها وسار فى آخر لاخضاع بعض بلاد الوجه البحري الصغيرة وفى خلال ذلك كان المقوقس قد عاد الى الاسكندرية وتولى منصب البطريق ثانيه وفى هذه المرة نجحت مساعيه فانه اقنع الامبراطور الجديد وكان ضعيفا بضرورة الموافقة علي تسليم الاسكندرية ثم شرع سراً فى عقد معاهدة ثانية مع عمرو فتقابلا فى بابليون وعقدا الشروط الآتية :

١ أن تدفع الجزية للمسلمين

٢ أن يعقد لذلك هدنة مدة ١١ شهرا

٣ أن تجلوا الجيوش الرومية من الاسكندرية

٤ أن لا يتدخل المسلمون في دين المسيحيين أويستبيحوا كنائسهم

٥ أن يسمح لليهود بالاقامة بالاسكندرية

٦ أن يسلم الروم ١٥٠ من جندهم و ٥٠ من رجالهم غير المحاربين رهناً وضماناً لما تقدم

وعند ماسمع أهل الاسكندريه وحاميتها بذلك هاجوا غضبا وكادوا يفتكون بالمقوقس لولا ماأوتيه من البلاغة فانه تمكن بها من اقناعهم بأن ماوقع خير لهم من اى شيء . وفى اول محرم سنة ٢١ هـ ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ م دفعت الجزية ودخلت الاسكندرية في قبضة العرب . ويعتبر تسليم الاسكندرية

---

(١) موقعها الآن قرية ابشاداي بمديرية المنوفية على فرع النيل الغربى . وقيل أيضا انها كانت تسمى «نحو»

من الوجهة الحربية أمراً لم يكن في الحسبان ، فانها كانت تستطيع المقاومة ثلاث سنوات أو أربعاً حتى يرسل اليها القيصر المدد الكافي لانقاذها . ولكن الاسكندريين كانوا قدسئموا تقلبات الروم وسوء حكمهم فى الاربعين سنه الاخيرة فسهل عليهم التأثر ببلاغة المقوقس ورجوا أن ينالوا فى ظل المسلمين هدوا وسلاما

ولا شك ان المقوقس كان اكبر مساعد على تسليم الاسكندرية وربما كان له فى ذلك مأرب خاص وهو جعل بطريقيته مستقلة عن القسطنطينية فرأى ان ذلك اسهل في عهد المسلمين منه فى عهد أمة مسيحيه

ذكر دولة بني امية

من سنة ٤١ هجرية ٦٦١ مسيحية الى سنة ١٣٢ هجرية ٧٥٠ م

أمية هو ابن عبد شمس بن عبد مناف وينتهى نسبه الى عدنان وعبدشمس والد أمية هوأخو هاشم الجد الثانى للنبي وهو جد العائلة المشهورة من قريش التي تولت الخلافة في الشام والاندلس بعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين ويعرفون بالاموية والامويين وبنى أمية

وأول من تولى الخلافة من بني أمية بعد الخلفاء الراشدين معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية سنة ٤١ هجرية ٦٦١ م بويع له بالخلافة بعد تنازل الحسن بن على بن أبي طالب عنها وتسليمه الامر اليه وسمي العام الذى وقع الاتفاق فيه عام الجماعة لان الامة اجتمعت فيه بعد الفرقة على امام واحد لانه لما قتل على بن أبي طالب اجتمع أصحابه بالكوفة فبايعوا ابنه الحسن على ماسبقت الاشارة اليه وبويع معاوية بالشام ولما رأى الحسن المناوشة بين أصحابه سلم الامر الى معاوية وبايعه بالامر وذلك لانه رأى المصلحة في جمع الكلمة فاستقام لمعاوية الملك وصفت له الولاية . وكانت دار خلافة بني أمية مدينة دمشق واستمر معاوية على سرير الخلافة الى أن توفي سنة ٦٠ ﻫ ٦٨٠ م وكانت خلافته منذ خلص له الامر ١٩ سنة وكان معاوية مليح الشكل عظيم الهيبة وافر الحشمة يلبس الثياب الفاخرة ويركب الخيل المسومة وكان كثير البذل والعطاء محسناً الى رعيته وهو أول من اتخذ سرير الملك وجلس فوقه وتبعه في ذلك الخلفاء من بعده وأول من تنعم فى مأكله ومشربه وملبسه وأول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب وأول من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحراب وله في الحلم

(١) عن كتاب تاريخ العرب وآدابهم

أخبار كثيرة واعلم أن معاوية كان مربي دول وسائس أمم وراعى ممالك ابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه أحد اليها منها انه وضع البريد لوصول الاخبار بسرعة واخترع ديوان الخاتم فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لايتمكن أحد من تغيبرها وفي سنة خمسين سير جيشاً كثيفاً الى القسطنطينية فأوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية ولم يدخلوها وفي أيامه بنيت القيروان وكمل بناؤها في خمس سنين وتوفي بدمشق في مستهل رجب سنة ستين للهجرة

وبعد وفاة معاوية خلفه على كرسى الخلافة ابنه «يزيد» بويع له بالخلافة يوم مات أبوه وكان يزيد بحمص فقدم منها وبايعه الناس ولم يبايعه الحسين بن على بن أبي طالب ولا عبد الله بن الزبير فسير جيشاً الى محاربة الحسين فادركوه فحملوا عليه وأصحابه واحتزوا رأس الحسين أما عبد الله بن الزبير فلحق بمكة وتحصن في المسجد الحرام فسار اليه الحصين بن نمير ونصب المنجنيق على أبي قبيس ورمي به الكعبة فخرقت أستارها وبينماهم كذلك اذ ورد الى الحصين الخبر بموت يزيد بن معاوية فارسل الى ابن الزبير يسأله الموادعة فاجابه الى ذلك وتوفى يزيد في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وكان ملكه ثلاث سنين وثمانية أشهر وكان يزيد آدم جعد أحور العينين بوجهه آثار جدري حسن اللحية خفيفها طويلا وكان موفر الرغبة فى اللهو والقنص تعلم الفصاحة ونظم الشعر في بادية بني كلب وبعد وفاة يزيد بن معاوية قام باعباء الخلافة ابنه «معاوية الثانى» ولم تكن ولايته غير ثلاثة أشهر ثم تخلى للعبادة ومات بالطاعون

وأما «عبد الله بن الزبير» فلما مات يزيد بن معاوية دعا الناس الى البيعة وادعى الخلافة فظفر بالحجاز والعراق وخراسان واليمن ومصر والشام الا الاردن

ثم بويع بالاردن «لمروان بن الحكم» وكان كاتب السر لعثمان وهو من عائلة بني أمية ثم دخل الشام فأذعن أهلها له بالطاعة وسار اليه من قبل عبد الله بن الزبير الضحاك بن قيس فاقتتلوا بغوطة دمشق فقتل الضحاك ومات مروان بدمشق مخنوقا سنة ٦٤ هـ ٦٨٣ م وكانت مدة خلافته تسعة أشهر

وبعد ان قتل مروان بن الحكم بالشام خلفه على سرير الخلافة ابنه «عبدالملك» بويع له سنة ٦٥ هـ ٦٨٤ م بالشام وأما ابن الزبير فبعث أخاه مصعبا على العراق فقدم البصرة وأعطاه أهلها الطاعة واستولى مصعب على العراقين فسار اليه عبد الملك بن مروان فالتقوا بمكان وقتل مصعب واستقام العراق لعبد الملك وكان الحجاج بن يوسف الثقفى على شرطته فرأى عبد الملك من نفاذه وجلادته ماأعجب

به فبعثه الي عبدالله بن الزبير فقتله وسلخ جلده وحشاه تبناً وصلبه وكانت فتنة الزبير تسع سنين منذ موت معاوية الي أن مضت ست سنين من ولاية عبد الملك وولى الحجاج الحجاز واليمامة وبايع أهل مكة لعبد الملك بن مروان وفي سنة ثلاثة وثمانين بني الحجاج مدينة واسط وهي بين البصرة والكوفة وتوفي عبد الملك سنة ٨٦ هـ ٧٠٥ م وكان ابن ستين سنة وكانت خلافته من لدن قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وكان عبد الملك حازماً عاقلا فقيهاً عالماً وكان ديناً فلما تولى الخلافة استهوته الدنيا فتغير عن ذلك وهو أول من ضرب السكة الاسلامية سنة ٧٦ هـ وبالغ في تخليص الذهب والفضة من الغش فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بنى أمية

ثم قام بالامر بعد عبد الملك بن مروان ابنه «الوليد» بويع له بالخلافة يوم توفي والده سنة ٨٦ هـ ٧٠٥ م وكان دميما سائل الانف يختال في مشيته قليل العلم قال الحافظ بن عساكر كان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم بني المساجد بدمشق وأعطي المجذمين ومنعهم السؤال الي الناس وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً ومنع الكتاب والنصارى من أن يكتبو االدفاتر بالرومية ولكن بالعربية وكان يبر حملة القرآن ويقضي عنهم ديونهم وبنى الجامع الاموي وزاد فيه جزءاً من كنيسة ماريوحنا بعد ان أرضاهم عنها وذلك في ذى القعدة سنة ٨٦ ولم يتم بناؤه فأتمه سليمان أخوه فكان جملة ماأنفق على بنائه أربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل وما زالت الى أيام عمر بن عبد العزيز فجعلها في بيت المال واتخذ عوضها صفراً وحديداً وبني الوليد قبة الصخرة ببيت المقدس وبني المسجد النبوي ووسعه حتى دخلت الحجرة النبوية فيه وفى أيامه أجاز طارق الى الاندلس فنهض لذريق ملك القوط وزحف الى طارق فالتقوا بفحص شريش فهزم الله ذريقاً وأذعنت الاندلس لامر الوليد وفتحت في أيامه الفتوحات الكثيرة من ذلك ماوراء النهر وتغلغل الحجاج في بلاد الترك وتغلغل مسلمة بن عبد الملك في بلاد الروم ففتح وسبي وفتح محمد بن القاسم الثقفى بلاد الهند وفي أيامه توفي الحجاج وقيل انه أحصى جملة الذين قتلهم الحجاج فكانوا مائة الف وعشرين الفاً وتوفي الوليد سنة ٩٦ هـ ٧٢٥ م بدير مروان وترك أربعة عشر ولداً ودفن في مقابر الباب الصغير

ثم قام بالامر بعداخوه «سليمان» واحسن السيرة ورد المظالم وآوى الغرباء واخرج المحبسين واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً وجهز اخاه مسلمة لغزو القسطنطينية ونزل سليمان في مرج دابق

فشتي مسلمة على القسطنطينية وزرع الناس بها الزرع واكلوه واقام مسلمة قاهرا القسطنطينية حتى جاءه الخبر بموت سليمان وكانت خلافة سليمان سنتين وثمانيـة اشهر واستخلف وزيره عمر بن العزيز سنة ٩٩ هـ ٧١٧ م

كان «عمر» بن عبد العزيز عفيفاً زاهداً ناسكا عابداً تقياً وهو اول من فرض لابناء السبيل وابطل فى الخطاب سب على وكان اليه المنتهي في العلم والفضل والشرف والورع والتألف ونشر العدل وتوفي عمر بدير سمعان وكان موته بالسم عند اكثر اهل التاريخ فان بني امية علموا انه ان امتدت ايامه اخرج الامر من ايديهم وانه لا يعهد بعده الا لمن يصلح بالامر فعاجلوه وما امهلوه وكانت خلافته سنتين و ٥ اشهر وكان متحرياً سيرة الخلفاء الراشدين وكانت نفقته كل يوم درهمين

ولما انقضى عهد عمر بن عبد العزيز قام بالامر بعده «يزيد الثاني» وهو ابن عبد الملك بويع له بالخلافة سنة ١٠١ هجرية ٧١٩ م وكان يزيد ابيض جسيما مليح الوجه خرج فى ايامه يزيد بن المهلب فأرسل عليه اخاه مسلمة فقاتله وظفر به ثم توفي يزيد فى حوران لاربع سنين من خلافته بعد ان عهد بالخلافة الى اخيه هشام

وفي سنة ١٠٥ هجرية ٧٢٢ م بويع «لهشام» بالخلافة يوم مات اخوه وكان هشام حازما عاقلا صاحب سياسة حسنة وكان ذا رأي ودهاء وحزم وفيه حلم وقلة شره وقام بالخلافة أتم قيام ويوصف بالبخل والحرص يقال انه جمع من الاموال مالم يجمعه خليفة قبله وفي ايامه غزا المسلمون بلاد الترك فانتصروا وغنموا شيأ كثيراً وقتلوا من الاتراك مقتلة عظيمة وقتلوا خاقان ملك الترك وكان المتولي لحرب الترك أسد بن عبدالله القسري وفي أيام هشام أيضاً خرج زيد بن زين العابدين ودعا لنفسه فاسرعت اليه الشيعة وكان الوالي على الكوفة من قبل هشام يوسف بن عمر الثقفي فجمع العساكر وناوش زيداً القتال فأصاب زيداً سهم في جبهته فحمل من المعركة ومات ودفن فلما أصبحوا استخرجه يوسف من قبره فصلبوه ومات هشام بالرصافة التي بناها بأرض الشام سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة ٧٤٢ م بعد ان اقام خليفة نحو عشرين سنة وكان مرضه بالذبحة

وتولى بعده «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» سنة ١٢٥ هـ ٧٤٢ م وكان الوليد مقيما في البادية فلما مات هشام سار من فورة الي دمشق واقام في الخلافة سنة واحدة وكان اكمل بني اميـة ادباً وفصاحة وظرفاً وأعرفهم باللغة والنحو وكان جواداً مفضالا ومع ذلك لم يكن فى بني أميـة اكثر

ادماناً للشراب والسماع ولا أشد مجوناً وتهتكا واستخفافاً بأمر الامة من الوليد بن يزيد فأجمع أهل دمشق على خلعه وقتله لاشتهاره بالمنكرات وتظاهره بالكفر والزندقة فلم يلبث الا أياماً يسيرة حتى قتل شر قتلة سنة ١٢٦ هـ ٧٤٣ م

ولما قتل الوليد اضطربت البلاد واستنصر على بني أمية أعداؤهم ولم تقم لهم قائمة بعده

ثم تولى «يزيد الثالث» وهو ابن الوليد سنة ١٢٦ هـ ٧٤٣ م وسمى الناقص فتفاءل بنو أمية بولايته فأقام في الخلافة والامور مضطربة عليه وكان مظهراً للنسك محمود السيرة مرضي الطريقة ويتخلق بأخلاق عمر بن عبد العزيز وكان ذا دين وورع الا انه لم يتمتع وبغتته المنية فتوفي بالطاعون بعد خمسة أشهر وأيام

وبعد وفاة يزيد الثالث بويع أخوه « ابراهيم » بن الوليد سنة ١٢٦ هـ ٧٤٣ م ومكث سبعين يوماً فسار اليه مروان بن محمد بن مروان فبرز الية الخليفة وعسكر بظاهر دمشق فخذله جنده وحاصروا عليه بعد ان انفق عليهم الخزائن واختفى أمره فبايع الناس «مروان الثاني» واستوثق له الامر وخلعوا ابراهيم وظهر السفاح بالكوفة وبويع له بالخلافة فجهز جيشاً لقتال مروان بن محمد فالتقي الجمعان قرب الموصل فهزم مروان وقتل في هربه في قرية بوصير من أعمال مصر بعد خلافته بخمس سنوات سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩ م وظهرت دولة بني العباس وانقرضت دولة بنى أمية من الشام

كلام اجمالي عن زمن دولة بني امية

من سنة ٤١ هـ ٦٦١ م الى سنة ١٣٢ هـ ٧٥٠ م

وبعد مضي مدة الخلفاء الراشدين وانتقال الخلافة الى بني أمية ونقل دار الخلافة الى مدينة دمشق دامت دولتهم نحو ٩٠ سنة وما زالت الاهمية الكبرى لبلاد العرب ولاهلها اذ كانت الولاة وأمراء الجيوش والكتاب واتباعهم من العنصر العربي البحت وبقيت الاحكام بيد هذا العنصر العربي الى أن ظهرت دولة بني العباس

الفتوحات

أهم الفتوحات التي حصلت في أيام بني أمية هى افتتاح الاندلس على يد طارق بن زياد في ايام الوليد بن عبد الملك وفي ايامه افتتح مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم وفتح محمد بن القاسم الثقفى بلاد الهند فكان ملك العرب ممتداً من نهر تاجه في اسبانيا الى نهر السند في آسيا

تمصير الامصار

وفي أيام معاوية أول خلفاء بني أمية ابتديء فى بناء القيروان وكمل بناؤها في خمس سنين وفي سنة ٨٣ هـ بني الحجاج بن يوسف الثقفي مدينة واسط وهي بين البصرة والكوفة وسميت واسط لتوسطها بين الكوفة والبصرة وتم بناؤها فى أيام خلافة عبد الملك بن مروان وفي أيام الوليد بن عبد الملك بنى الجامع الاموي بالشام وهو من أعظم مباني العرب فى الشرق ومن أحسن جوامع الاسلام ويبلغ طوله خمسمائة وخمسين قدماً فى عرض مائة وخمسين قدماً وهو قائم على عمد من الرخام السماقي والرخام المختلف الالوان وفي قبته ستمائة قنديل مدلاة بسلاسل من الذهب وقد أبدلت فيما بعد بالصفر والحديد وفيه أربعة محاريب لاصحاب المذاهب الاربعة الى غير ذلك من الزخارف والنقوش البديعة وفي أيام الوليد بنيت قبة الصخرة ببيت المقدس وبني المسجد النبوي ووسعه حتى دخلت الحجرة النبوية فيه وفي أيام هشام بن عبد الملك بنيت الرصافة في الشام وهى مشهورة باسم رصافة هشام

الترف

وبعد انقضاء عهد الخلفاء الراشدين وانتقال الخلافة لبني أمية ابتدأ فيهم داء الترف وأول من ابتدأ فيه الترف هو معاوية بن أبي سفيان أول خلفائهم فهو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب على بابه ومشى بين يديه صاحب الشرطة بالحراب وكان يلبس الثياب الفاخرة ويركب الخيل المسومة ويتنعم في مأكله ومشربه وملبسه الي غير ذلك من أدوات الترف ولم يكن من خلفاء بني أمية من ماثل الخلفاء الراشدين الا عمر بن عبد العزيز فانه كان متحرياً سيرة الخلفاء الراشدين في العفة والزهد والعبادة والتقى واليه المنتهى في العلم والفضل والشرف ونشر العدل ولذا أماتوه بالسم على ما قيل خيفة أن تمتد أيامه فيخرج الامر من أيديهم فعاجلوه وما أمهلوه

اللغة والآداب

أعلم انه بعد الفتوحات الاسلامية اختلطت لغات القبائل العربيه كلها وفي جملتها القبائل الموثوق بعربيتها بلغات الاعاجم من الشعوب الكثيرة التي دخلت في دين الاسلام فقشا الفساد في اللغة العربية خصوصاً في المخاطبات الشفاهية المعتادة ولذلك اضطر الحال فيما بعد الى وضع مؤلفات لحفظها وصيانة قواعدها من التلف والضياع

أما الآداب في هذا الزمن فكانت آداب القرآن والحديث والشعر ومعلوم ان الخط العربي في أول الاسلام كان غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط لما كان العرب عليه من البداوة وبعدهم عن الصنائع وفي أيام الخليفة عثمان بن عفان أمر بكتابة المصاحف وتوزيعها على مساجد البلاد العربية وبقى الناس يقرؤن في مصحف عثمان بن عفان نيفاً وأربعين سنة الي أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف الثقفي الى كتابته وكان يومئذ عاملاً على البصرة من قبل عبد الملك بن مروان وسألهم أن يضعوا الي هذه الحروف المشتبهة علامات فقام بذلك النضر بن عاصم ووضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها فصار الناس بذلك لا يكتبون الا منقوطاً

أما الشعر في أيام بني أمية فكان آخذاً مأخذه من الشعر القديم وقد نبغ منهم وفي أيامهم عدد من الشعراء ليس بقليل فقد تعلم يزيد بن معاوية الفصاحة ونظم الشعر في بادية بني كلب وكان عبدالملك بن مروان من أهل العلم والفقه وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك من أكمل بني أمية أدباً وفصاحة وأعرفهم باللغة والنحو ونظم الشعر والذين نبغوا في أيامهم في الشعر والادب هم أعشى همدان والاعشى التغلبي وأعشى بني ربيعة والقطامي والاخطل والفرزدق وجرير وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت بن زيد وارطاة بن سمية وفي الخطابة ابن خماعة وفي الفقه النعمان بن ثابت المعروف بأبي حنيفة . اه

أسباب سقوط الدولة الاموية (١)

١ مزاحمة بيتين عظيمين لهم في الخلافة : هما بيت العلويين والعباسيين ، ولكل شيعة عظيمة تنصره لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

٢ كثرة الخوارج الذين لا يرون وجوب انتخاب الخلفاء من قريش

٣ تهاون الطبقة الثانية من أبناء خلفائهم بأمز الملك واشتغالهم باللهو ومشاحة بعضهم لبعض وتنازعهم فى الخلافة

٤ ترفعهم على الأجناس المحكومة من الفرس والترك والروم وغيرهم ، فقلما كانت تتخذ منهم ولاة أو قواداً أو تتزوج منهم ، مما بغضهم فيهم وجعلهم ينصرون العباسيين عليهم

(١) عن تاريخ مصر الى الفتح العثماني

ذكر دولة العباسيين (١)

من سنة ١٣٢ هجرية ٧٥٠ مسيحية الى ٦٥٦ هجرية ١٢٥٨ مسيحية

لما اضطرب حبل بني أمية في الشام انتقل الملك الى آل عباس في الحيرة من العراق وكانت الدولة العباسية ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة خصوصاً في أواخرها الا انها كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم أسواق العلوم فيها رائجة وبضائع الآداب فيها نافقة وشعائر الدين فيها معظمة والخيرات فيها متدفقة والحرمات مرعية والثغور محصنة حتى كانت أواخرها فاضطرب الامر

وأول من تولى الخلافة منهم «أبو العباس السفاح» وهو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أمير المؤمنين ولد بالحميمة سنة ثمان ومائة هجرية وتولى الخلافة سنة ١٣٢ هجرية ٧٥٠ م وكان كريماً وقوراً عاقلاً كاملاً كثير الحياء حسن الاخلاق وتحول السفاح من الحيرة الى الانبار ولما استوثق له الامر تتبع بقايا بني أمية ورجالهم فوضع السيف فيهم حتي قتلوا جميعاً ثم لم تطل مدة السفاح حتى مات بالانبار سنة مائة وست وثلاثين هجرية ٧٥٤ م

ولما انقضى عهد السفاح قام باعباء الخلافة أخوه «أبو جعفر المنصور» بويع له بالخلافة في سنة مائة وست وثلاثين هـ ٧٥٤ م وكان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وذوي الآراء الصائبة والتدبيرات السديدة منهم وقوراً مهيباً حسن الخلق في الخلوة من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح وكان يلبس الخشن وربما رقع قميصه ولم يكن يرى في دار المنصور لهو ولعب ورتب القواعد وأقام الناموس وكان مبخلا يضرب بشحه المثل فسمي لبخله أبا الدوانق لمحاسبته العمال والصناع على الدانق والحبة والصحيح انه كان رجلا حازماً يعطي في موضع العطاء ويمنع في موضع المنع وكان المنع عليه أغلب وهو الذي بنى مدينة بغداد وجعلها داراً للملك وكانت وفاة المنصور سنة ثمان وخمسين ومائة ٧٧٥ م ببير ميمونة على أميال من مكة وهو محرم بالحج وعمره وقتئذ ثلاث وستون سنة وكان طويلا أسمر نحيفاً خفيف اللحية رحب الجبهة كأن عينيه لسانان ناطقان صارماً ذا جبروت وسطوة

ثم قام بالامر بعده ابنه «المهدي» بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه المنصور بعهد منه سنة ١٥٨ هـ

---

(١) عن كتاب تاريخ العرب وآدابهم

٧٧٥ م وكان المهدي شهماً فطناً كريماً شديداً على أهل الالحاد والزندقة وكان يجلس في كل وقت لرد المظالم وفي سنة خمس وستين ومائة سير المهدي ابنه الرشيد لغزو الروم فسار حتى بلغ خليج القسطنطينية وصاحبة الروم وقتئذ ايريني امرأة لاون الملك فجزعت المرأة من المسلمين وطلبت الصلح من الرشيد فجري الصلح بينهم على الفدية ومات المهدي بماسبذان سنة ١٦٩ هـ ٧٨٥ م واختلف في موته وله من العمر ثلاث وأربعون سنة

ولما توفي المهدى كان الرشيد معه في ماسبذان فكتب الى أخيه الهادى يعلمه بوفاة المهدى والبيعة له فتولى «موسي الهادى» الخلافة بعد وفاة أبيه المهدي سنة ١٦٩ هـ ٧٨٥ م ولم تطل مدته وسبب وفاته انه لما ولى الخلافة كانت أمه الخيزران تستبد بالامور دونه وكلمته يوماً في أمر فلم يجد الى اجابتها سبيلا فقالت لابد من الاجابة اليه فغضب الهادي وقال والله لاقضيتها لك قالت اذاً لاأسألك حاجة أبداً قال لاأبالى فقامت مغضبة فقال مكانك والله لئن بلغني انه وقف في بابك أحد من قوادي لاضربن عنقه ماهذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك فانصرفت وهى لم تعقل ووضعت جواريها عليه لما مرض فقتلوه وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر

وولي بعد الهادي اخوه «هارون الرشيد» الخامس من العباسيين بعهد من أبيه سنة سبعين ومائة هجرية ٧٨٦ م ومولده في الري وأمه الخيزران أم الهادي وكان فصيحاً بليغاً أديباً كثير العبادة والحج وكان يصلي في خلافته كل يوم مائة ركعة لايتركها الا لعلة ويتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم ويحب العلم واهله ويعظم حرمات الاسلام وفي أول خلافته حج بالناس وفرق مالاً كثيراً وكان حجه ماشياً على اللبود تفرش له من منزل الى منزل وفي سنه اثنتين وسبعين ومائة بايع الرشيد لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الامين وولاه خراسان وما يتصل بها الي همذان ولقبه بالمأمون وسلمه الى جعفر بن يحي البرمكي وغزا المسلمون الصائفه فبلغوا قسس مدينة أصحاب الكهف واستعمل الرشيد حميد ابن معيوب على الاساطيل من سواحل الشام ومصر الى قبرس فهزم وخرب وسبي من أهلها نحواً من سبعة عشر ألفاً وجاء بهم الى الواقعة فبيعوا بها وفي سنة ١٨٧ هـ خلعت الروم ايريني الملكه وملكوا نيقيفور وكانت ايريني تعظم الرشيد وتبجله وتدر عليه الهدايا فلما تولى نيقيفور وعاث وتمكن من ملكه كتب الي الرشيد انه عامل على تطرق بلاده والهجوم على أمصاره فشخص

الرشيد من شهره ذلك يؤم بلاد الروم في جمع لم يسمع بمثله وقواد لا يجارون بأساً وحسن تدبير فلما بلغ ذلك(نيقيفور) ضاقت عليه الارض بما رحبت وجد الرشيد يتوغل في بلاد الروم وجعل يقتل ويغنم ويسبي ويخرب الحصون ويعفي الآثار حتى أناخ على (هرقلة) وهي من أوثق حصن وأعزه جانباً وأمنعه ركناً فحصر الرشيد أهلها وضايقهم وألح بالمجانيق والعرادات والسهام حتى رقوا اسورها وفتح أهلها الابواب مستأمنين وفي هذه السنة ذاتها أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل(جعفر بن يحيى) وكتب الى العمال في جميع النواحي بالقبض على البرامكة واستصفى مالهم وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة سار الرشيد من(الرقة) الى بغداد يريد خراسان لحرب الرافع بن الليث وكان ظهر ببلاد ما وراء النهر مخالفاً للرشيد(بسمرقند) ولما سار الخليفة ابتدأت به العلة في بعض الطريق ولما بلغ (جرجان) في صفر اشتد مرضه وكان معه ابنه المأمون في مسيره الى(مرو) ومعه جماعة من القواد. وسار الرشيد الى(طوس) فمات ودفن بها سنة ثلاث وتسعين ومائة ه ٨٠٩ م وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وكان عمره سبعاً وأربعين سنة وكان جميلا أبيض جعداً قدو خطه الشيب وكان هارون الرشيد من أعقل الخلفاء العباسيين وأكملهم رأياً وتدبيراً وفطنة وقوة واتساع مملكة وكثرة خزائن

وفي مدة خلافته كان على مملكة فرنسا الملك(كارلوس الكبير) المعروف(بشارلمان)وكان بينهما مودة وكان الرشيد كثيراً ما يراسله ويهاديه ومن جملة ما أهداه شطرنج ثمين وساعة شمسية من مخترعات بلاده وأرسل له أيضاً مفاتيح كنيسة القيامة في القدس مع أمر لنوابه أن يعاملوا الزوار الذين يأتون لزيارة الاراضي المقدسة أحسن معاملة

وبعد وفاة الرشيد انتهى الامر الى ابنه(الامين) بويع له بالخلافة سنة ١٩٣ ه بعد موت أبيه وكان الامين كثير اللهو واللعب منقطعاً الى ذلك مشتغلا به عن تدبير مملكته فأقبل ينكث عهد المأمون وسعى بخلعه والبيعة لابنه موسى فأمر بالدعاء له على المنابر ونهى عن الدعاء للمأمون وأمر بابطال ما ضرب المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان فنمى الشر بينهما فجهز المأمون لقتاله طاهر بن الحسين فسار اليه وحاصره ببغداد وتراموا بالمجانيق وأقام الحصار مدة سنة فتضايق الامر على الامين وفارقته أكثر أصحابه وكتب طاهر الى وجوه أهل بغداد سراً يعدهم أن أعانوه ويتوعدهم ان لم يدخلوا في طاعته فأجابوه وجاهروا بخلع الامين فنجا الامين بنفسه وركب حراقة أعدها له هرثمة وكان وعده بالامان فلما صار الامين في الحراقة خرج عليه أصحاب طاهر وكانوا كمنوا له فرموا الحراقة بالحجارة

فانكفأت بمن فيها فشق الامين ثيابه وسبح الى بستان فأدركوه وحملوه الى طاهر فبعث اليه جماعة وأمرهم بقتله فاحتزوا رأسه فأمر طاهر بنصبه فلما رآه الناس سكنت الفتنة ثم جهره طاهر الى المأمون وصحبته خاتم الخلافة فشكر الله المأمون على ما رزقه من الظفر وكان قتل الامين ليلة السبت لست بقين من المحرم سنة ١٩٨ هجرية ٨١٣ م وكانت خلافته أربع سنين و ٨ أشهر وخمسة أيام وله من العمر ٢٨ سنة

ولما انقضى عهد الامين بويع للمأمون البيعة العامة في بغداد في سنة ثمان وتسعين ومائة هجرية ٨١٣ م وكان (المأمون) من أفاضل الخلفاء وعلمائهم وحكمائهم وحلمائهم أتم رجال بني العباس حزماً وعزماً وفراسة وفهماً وكان قد أخذ من العلوم بقسط وضرب فيها بسهم وتأدب وتفقه وبرع في فنون التاريخ والادب ولا سيما الرياضيات وعلم الهيئة ولما كبر اعتنى بالفلسفة وعلوم الاول وهو الذي جمع العلماء اليه من جميع الاقطار وجعل بغداد مركزاً للعلم وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم أحكام ترجمتها فترجمت له بما أمكن من الضبط من اليونانية والفارسية والسريانية وأنشأ صروح العلم فكان يخلو با لحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده وعقد المجالس في خلافته للمناظرة في الاديان والمقالات وكان المأمون عظيم العفو جواداً بالمال وكان يقول لو يعلم الناس ما أجد في العفو من اللذة لتقربوا الى بالذنوب وكان أبيض مليح الوجه ربوعاً طويل اللحية ديناً عارفاً بالعلم فيه دهاء وسياسة وفي أيامه خرج عليه (ابراهيم بن المهدي) عمه فبايعه بعض بني العباس وخلعوا المأمون فجد المأمون في المسير الي بغداد فظفر بابراهيم ولم يؤاخذه وأحسن اليه ثم صفا الملك بعد ذلك للمأمون وسكنت الفتن وقام المأمون باعباء الخلافة وتدبير المملكة قيام حزماء الملوك وفضلائهم ثم خرج الى الثغر ودخل بلاد الجزيرة والشام وأقام بها مدة طويلة ثم غزا الروم وفتح فتوحات كثيرة وأبلى بلاء حسناً وتوفي في بعض غزواته سنة ثماني عشرة ومائتين هجرية ٨٣٣ م وهو ابن تسع وأربعين سنة وكانت خلافته عشرين سنة ودفن (بطرسوس)

ثم قام بالامر بعده أبو اسحاق ابراهيم (المعتصم بالله) ابن هارون الرشيد بويع له بالخلافة يوم موت أخيه بعهد منه ولما بويع له تشعب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون فخرج اليهم العباس وقال لهم قد بايعت عمي فسكتوا ولم يكن في بني العباس مثله في القوة والشجاعة والاقدام وانتشأ

عامياً يكتب كتابة عامية ويقرأ قراءة ضعيفة وهو أول من أدخل الاتراك الدواوين وكان يتشبه بملوك الاعاجم وبلغ غلمانه الاتراك ثمانية عشر ألفاً وألبسهم أطواق الذهب والديباج وكانوا يطاردون الخيل في بغداد فضاقت بهم المدينة وتأذى بهم الناس فبنى المعتصم مدينة «سر من رأي» بقرب بغداد وانتقل اليها سنة ٢٢٠ﻫ ٨٣٥ م وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين خرج «توفيل بن ميخائيل» ملك الروم الى بلاد المسلمين فأوقع بأهل «زبطرة» وعاد الى «ملطية» وغيرها فاستباحها قتلا وسبياً فاستعظمه المعتصم ولما بلغه أن «عمورية» عين النصرانية وأنها أشرف عندهم من «قسطنطينية» وانه لم يتعرض أحد اليها منذ كان الاسلام جهز اليها مالا يماثله فيه أحد من السلاح والآلة والعدد وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد أفضى الى فتح «عمورية» فهدمت وأحرقت بعد أن حاصرها نحو شهرين فقتل من الروم ٣٠ ألفاً وأسر ٣٠ ألفاً وتوفي المعتصم سنة ٢٢٧ هجرية ٨٤٢ م وهو أغلظ الخلفاء ألزم الناس القول بخلق القرآن

ثم قام بالامر بعده ابنه «هارون الواثق بالله» بويع له بالخلافة «بسر من رأى» يوم موت أبيه ونفذت البيعة الى بغداد واستقر له الامر ببغداد وغيرها وكان الواثق من أفاضل خلفائهم نبيباً فطناً فصيحاً شاعراً وكان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته وفي عهده غزا المسلمون في البحر جزيرة «صقليه» وفتحوا مدينة «مسينه» في عهد الملكة «تاودورا» وكانت ملكة بعد «توفيل» ملك الروم وابنها «ميخائيل بن توفيل» وهو صبي ومات الواثق بداء الاستسقاء بسر من رآى في رجب سنة ٢٣٢ ﻫ ٨٤٧ م وهو ابن ست وثلاثين سنة وأشهر وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وكان أبيض مليحاً يعلوه اصفرار حسن اللحية في عينيه نكتة

ثم ولي بعده أخوه «جعفر المتوكل» على الله بويع له بالخلافة بسر من رآى يوم مات أخوه الواثق بعهد منه سنة ٢٣٢ ﻫ ٨٤٧ م وله من العمر ست وعشرون سنة فرفع المحنة بخلق القرآن وأظهر السنة وأمر بنشر الآثار النبوية وفي ثمان وثلاثين ومائتين انتهى الروم الى «دمياط» بالاساطيل وأحرقوا وسبوا وساروا الى مصر ورجعوا ولم يتعرض لهم أحد وفي سنة سبع وأربعين ومائتين كثر المماليك الاتراك في بغداد فاستولوا على المملكة فصار بيدهم الحل والعقد والتولية والعزل الى أن حملهم الطغيان على العدوان فسطوا على الخليفة المتوكل وكان بين المتوكل وابنه المنتصر مباينة فاتفق مع باغر قائدهم فدخلوا عليه في مجلس أنسه وعند الوزير الفتح بن خاقان فصاح الفتح ويلكم هذا

سيدكم ورمي بنفسه فضربهما باغر فماتا كلاهما ثم خرج باغر ومن معه من رجاله الى المنتصر بالله فسلموا عليه بالخلافة وكان قتل المتوكل في شوال سنة ٢٤٧ هـ ٨٦١ م وعمره اربعون سنة وكانت خلافته ١٤ سنه و ١٠ أشهر وقيل ١٥ سنه وكان أسمر رقيقا مليح العينين خفيف اللحية ليس بالطويل فيه قصف وانهماك باللهو والمكاره

ثم خلفه ابنه (محمد المنتصر بالله) بويع له بالخلافة في الليلة التى قتل فيها أبوه وبويع له من الغد البيعه العامة فلم تطل دولته ولم يتمتع بالملك لاستيلاء المماليك الاتراك على المملكة فدسوا الى طبيبه السم فقصده بمبضع مسموم فمات لستة أشهر من مبايعته وعمره ٢٦ سنة وأمه روميه وكان مربوعاً سميناً أعين أقنى الانف مليحاً مهاباً كامل العقل يحب الخير

ثم ملك بعده (المستعين بالله) وهو احمد بن محمد بن المعتصم بايعه الامراء وا كابر المماليك ولم يولوا أحدا من ولد المتوكل لئلا يطالب بدمه وكانت تلك الايام أيام فتن وحروب وخروج خوارج واعلم ان المستعين كان مستضعفا في رأيه وعقله وتدبيره وكانت ايامه شديدة الاضطراب ولم يكن فيه من الخصال المحمودة الا انه كان كريماً وهوبا خلع في سنة ٢٥٢ ثم قتل بعد ذلك وكانت خلافته سنتين وتسعة أشهر وعمره ٣١ سنة وكان مربوعاً مليح الوجه به أثر جدرى وكان ألثغ يجعل السين ثاء

وملك بعده (المعتز بالله) وهو ابو عبدالله بن محمد المتوكل بويع بالخلافه سنة ٢٥٢ هـ ٨٨٦ م عقيب خلع المستعين وكان المعتز جميل الشخص حسن الصورة ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس الا ان الاتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكه واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في يدهم كالاسير ان شاءوا أبقوه وان شاؤا خلعوه وان شاؤا قتلوه وفي سنه ٢٥٥ صار الاتراك الى المعتز يطلبون أرزاقهم فماطلهم بحقهم فلما رأوا انه لايحصل منه شيء دخل اليه جماعه منهم فجروا برجله الي باب الحجره وضربوه بالدبابيس ثم أدخلوه سردابا وجصصوا عليه فمات وذلك سنة ٢٥٥ للهجرة ٨٦٨ م وكان عمره ٢٣ سنه وخلافته اربع سنين و٦ اشهر وكان بديع الحسن

وبعد المعتز قام باعباء الدولة (المهتدي بالله) وهو ابو عبدالله محمد بن الواثق كان المهتدي بالله من أحسن الخلفاء مذهباً وأجملهم طريقه وسيرة واظهرهم ورعا واكثرهم عبادة كان يتشبه بعمر ابن عبد العزيز ويقول اني استحي ان يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني العباس وكان

يجلس للمظالم فيحكم حكماً يرتضيه الناس وكان يتقلل في مأكوله وملبوسه وكان (المهتدي) قد اطرح الملاهي وحرم الغناء والشراب ومنع أصحابه من الظلم والتعدي وكان سبب قتل المهتدي أنه قتل بعض الموالي فشغب عليه الاتراك وهاجوا وأخذوه اسيرا وعذبوه ليخلع نفسه فلم يفعل فقتلوه وذلك في رجب سنة ٢٥٦ وهو ابن سبع وثلاثين سنة

ثم قام بالامر بعده ابن عمه (احمد المعتمد على الله) ابن المتوكل على الله ابن المعتصم بالله بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه المهتدي بالله (بسر من رأى) وكان مستضعفاً وكان أخوه (الموفق طلحه الناصر) هو الغالب على أموره فللمعتمد الخطبة والسكه والتسمي بأمير المؤمنين ولاخيه طلحه الامر والنهي وقود العساكر ومحاربة الاعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والامراء وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته وفي أيامه خرج (احمد بن طولون) وظفر (بحلب) و(انطاكيه) وبقية العواصم واستقل بمصر واخذ خراجها وكانت يومئذ عامرة آهلة ثم توفي المعتمد في شوال سنة ٢٧٩ هـ ٨٩٢ م وله ٥٠ سنة وكانت خلافته ٢٣ سنة وتوفي ببغداد وكان اسمر ربعة رقيقاً مستدير الوجه مليح العينين صغير اللحية اسرع الى الشيب منهمكا على اللهو واللذات يسكر ويعض يده

ثم ملك بعده (المعتضد بالله) بن الموفق بويع له بالخلافة يوم مات عمه المعتمد فاستقل بالامر وكان شهما عاقلا فاضلا حمدت سيرته ولي والدنيا خراب والثغور مهملة فقام قياما مرضياً حتى عمرت مملكته وكثرت الاموال وضبطت الثغور وكان قوي السياسة شديدا على اهل الفساد حاسما لاطماع عساكره من أذى الرعية وكانت أيامه أيام فتوق وخوارج كثيرة منهم (عمرو بن الليث الصفار) كان قد عظم شأنه وفخم أمره واستولى على أكثر بلاد العجم فآلت عاقبته الى القيد والاسر والذل فقام المعتضد في اصلاح المتشعب من مملكته والعدل في رعيته حتى مات وكان المعتضد سار الى (الموصل) قاصداً للاعراب والاكراد فأوقع بهم وقتل منهم وخرج الى الجزيرة يريد قلعة (ماردين) وكانت (لحمدان) فهدمها وظفر بحمدان مليكها وتوفي سنة تسعين ومائتين لسبع بقين من شهر ربيع الآخر وهو ابن ٤٦ سنة وقيل ٤٠ سنة وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وقيل عشر سنين وكان أسمر مهيباً معتدل الشكل

ثم قام بالامر بعده ابنه (علي أبو محمد المكتفي بالله) ابن المعتضد بويع له بالخلافة يوم توفي أبوه سنة ٢٩٠هـ ٩٠٢م وكان المكتفي من أفاضل الخلفاء وسيما جميلا بديع الحسن دري اللون معتدل الطول

وكان حسن العقيدة كارهاً لسفك الدماء وفي أيامه ظهر (القرامطة) وهم قوم من الخوارج خرجوا وقطعوا الدرب على الحاج واستأصلوا شأفتهم وقتلوا فيهم مقتلة عظيمة وسرح (المكتفي) اليهم جيوشاً كثيرة فأوقع بهم وقتل بعض زعمائهم وكانت خلافة المكتفي ست سنين فانقصف غصن شبابه القشيب ويبس عود جماله النضر الرطيب فانتقل من دار الفناء الى دار الجزاء والبقاء

ثم قام بالامر بعده أخوه أبو الفضل جعفر (المقتدر بالله) بويع له يوم وفاة أخيه وهو ابن ثلاث عشرة سنة وضعف دست الخلافة في أيامه وكان المقتدر سمحاً كثير الانفاق وولى الخلافة ثلاث مرات فتغلب الجند عليه واتفقوا على خلعه وعقدوا البيعة لابي العباس بن المعتز وكان (ابن المعتز) أكثر العباسيين فضلا وأدباً ومعرفة موسيقي وأشعر الشعراء مطلقاً في التشبيهات المبتكرة الغريبة المرقصة التي لا يشق له فيها غبار فأرسل المقتدر وقبض على ابن المعتز وقتله في حبسه واستقام الامر (للمقتدر) بعد الاضمحلال ولاح بدر فلاحه بعد الزوال وهذه ولايته الثانية ثم جرت بين المقتدر وبين (مؤنس) المظفر أمير الجيوش منافرة أدت الى خلع المقتدر ومبايعة أخيه (القاهر) ثم أعيد المقتدر ثالثة وحمله الجنود على أعناقهم الى دار الخلافة فجلس على السرير وصفح عن أخيه القاهر ثم وقع بينه وبين مؤنس حرب فتوغل المقتدر في المعركة فضربه واحد من البربز فسقط الى الارض فقال لضاربه ويحك أنا الخليفة فقال له أنت المطلوب وذبحه بالسيف وكان قتله يوم الاربعاء لثلاث بقين من شوال سنة ٣١٦ هجرية ٩٣٢ م وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وشهر وكانت خلافته ٢٤ سنة وفي أيامه نبغت الدولة الفاطمية بالمغرب

وولى أخوه (القاهر) بالله مكانه فما لبث أن قهر القاهر المذكور وسملت عيناه فجعل يستعطى في شوارع بغداد

وعقبه في الخلافة أبو العباس بن المقتدر ولقبوه (الراضي) بالله سنة ٣٢٣ هـ ٩٣٣ م وفي أيامه ضعف أمر الخلافة العباسية فكانت فارس في يد (ابن بويه) والموصل وديار بكر في يد (بني حمدان) ومصر والشام في يد (الفاطميين) والاندلس في يد (عبد الرحمن الاموي) فلم يبق في يد الراضي سوى بغداد وما والاها فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخليفة وعم الخراب

ثم تولي بعده أبو اسحق اخوه سنة ٣٢٨ هـ ٩٤٠ م ولقب (المتقى بالله) لم يكن له من السيرة مايؤثر وقبض عليه توزون التركي وسمل عينيه سنة ٣٣٣ هـ ٩٤٤ م

وبويع بعده لابن عمه (المستكفي بالله) سنة ٣٣٣ هـ ٩٤٤ م واستمر في خلافته سنة واحدة وأمسكه من أمرائه (معز الدولة بن بويه) فسمل عينيه وضمه الى المتقي بالله والقاهر بالله فصاروا ثلاثة أنافي العمي

وولي الخلافة بعده ابن عمه (المطيع) لله سنة ٣٣٤ هـ ٩٤٦ م وفي أيامه قويت شوكة آل بوية وتم أمرهم على ضعف الخلافة وطالت أيامه الي أن خلع نفسه

وبويع لولده عبد الكريم في سنة ٣٦٣ هـ ٩٧٤ م ولقب (الطائع لله) وكان مغلوباً عليه من قبل امرائه وما كان له الا العظمة الظاهرة وكان شديد القوة في خلقه حدة كريماً شجاعاً بطلاً جواداً سمحاً الا ان يده كانت قصيرة مع ملوك بني بويه فقبضوا عليه

وبايعوا أبا العباس أحمد (القادر بالله) سنة ٣٨١ هـ ٩٩١ م وكان حسن الطريقة والسمت كثير الخير والدين والمعروف وفي أيامه تراجع وقار الدولة العباسية ونمى رونقها وأخذت أمورها في القوة ومكث القادر في الخلافة مدة طويلة حتى أنافت خلافته على احدى وأربعين سنة

وولي بعده بعهد منه ولده أبو جعفر سنة ٤٢١ هـ ١٠٣١ م ولقب (القائم بأمر الله) وكان خيراً ديناً باهر الفضل الا انه مغلوب بيد أمرائه وطالت مدته مع ذلك وفي أيامه انقرضت دولة بني بويه وظهرت الدولة السلجوقية

ثم تولى بعده بعهد منه حفيده أبو القاسم سنة ٤٦٨ هـ ١٠٧٥ م ولقب (المقتدي بالله) وكان من نجباء بني العباس ديناً وكانت وفاته سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م فجأة

ولما انقضى عهد المقتدي قام باعباء الخلافة بعده ابنه أبو العباس سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م ولقب (المستظهر بالله) وكان كريم الاخلاق سهل العريكة مهذب الخلال وكان قد تغلب عليه ملوك آل سلجوق

ثم خلفه ابنه أبو منصور ولقب (المسترشد بالله) سنة ٥١٢ هـ ١١١٨ م وكان شجاعاً ديناً مقداماً ذا رأي وهمة عالية فأحيي مجد بني العباس وخرج الى قتال السلطان (مسعود السلجوقي) فاستظهر عليه وقتل المسترشد غيلة

ثم قام بالامر بعده ابنه (الراشد) سنة ٥٣٠ هـ ١١٣٥ م ولم تطل مدة خلافته فجهز عسكراً كثيفاً لمحاربة مسعود فدخل السلطان بغداد واستبد بتدبير الامور وخلع الراشد

وولى عمه أبا عبد الله سنة ٥٣١ هـ ١١٣٦ م ولقبه (المقتفى بالله) وكان ممكناً دمث الاخلاق خليقاً بالامارة كامل السؤدد بيده أزمة الامور كان لايجري في خلافته أمر وان صغر الا بتوقيعه وجرت في أيامه فتن وحروب بينه وبين سلاطين العجم كانت الغلبة فيها له وثار في أيامه العيارون والمفسدون فنهض لقمعهم أتم نهوض

ثم عقبه ابنه (المستنجد بالله) سنة ٥٥٥ هـ ١١٦٠ م وكان شهما عارفاً بالامور أزال المكوس والمظالم وفي أيامه ضعفت دولة الفاطميين في مصر وخنق المستنجد في الحمام اكابر دولته عقيب مرضة صعبة

وتولي بعده ابنه أبو محمد سنة ٥٦٦ هـ ١٧٧٠م ولقب (المستضيء بالله) وكان حسن السيرة كريم النفس وكثر ثناء الخلق عليه

ثم ملك بعده ابنه (الناصر لدين الله) سنة ٥٧٦ هـ ١١٨٠ م وكان الناصر من أفاضل الخلفاء وأعيانهم بصيرا بالامور متوقداً ذكاء وفطنة وطالت مدته وصفا له الملك وأحب مباشرة أحوال الرعية حتي كان يتمشي في الليل في دروب بغداد ليعرف أحوال الرعية وما يدور بينهم وفي أيامه كان ظهور (صلاح الدين الايوبى) واستيلاؤه على مصر واستخلاصه (بيت المقدس) من أيدي النصارى الافرنج وازالة دولة الفاطميين

وتولى مكانه بعد موته ابنه محمد الظاهر بأمر الله سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ ولم تطل أيامه ولم يجر فيها مايسطر ولكنه أظهر العدل والاحسان

وبعد وفاته قام باعباء الدولة ابنه أبو جعفر سنة ٦٢٣ هـ ١٢٢٦ م ولقب (المستنصر بالله) كان المستنصر شهما جواداً يباري الريح كرما وجوداً وكانت هباته وعطاياه اشهر من أن يدل عليها وأعظم من ان تحصى وكان المستنصر يقول انى أخاف أن الله لايثيبنى على ما أهبه وأعطيه لان الله تعالى يقول (لن تنالوا البر حتي تنفقوا مما تحبون) وأنا والله لافرق عندي بين التراب والذهب وكانت ايامه طيبه والدنيا في زمانه ساكنة والخيرات والاعمال عامرة وفى ايامه فتحت (اربل) ومات المستنصر فى ٦٤٠ هـ ١٢٤٣ م }

ثم قام بالامر بعده ابنه (المستعصم بالله) سنة ٦٤١ هـ ١٢٤٣ م وهو آخر الخلفاء العباسيين وكانت مدة دولتهم ٥٢٤ سنة قمرية وكان المستعصم بالله مستضعف الرأى قليل الخبرة واهى العزيمة وكان وزيره ابن العلقمي عدوا له يداريه في الظاهر وينافقه في الباطن وكان تدبيره على ازالة

الخلافة من بني العباس فأذن للجند بالتفرق والذهاب أين شاؤا وعظم الهرج ببغداد ووقعت الفتن فصار ابن العلقمي يكاتب هولاكو ملك التتر ويستحثه لقصد بغداد ويخبره عن طريقة أخذها وضعف الخليفة وانحلال العسكر فزحف هولاكو بعسكر جرار الى بغداد والمستعصم ومن معه في غفلة عنه لاخفاء ابن العلقمي عنه سائر الاخبار الى أن وصل بلاد العراق واستأصل من بها قتلا وأسراً وتوجه الى بغداد وأرسل الى الخليفة يطلبه اليه فاستيقظ الخليفة من نوم الغرور وندم على غفلته حيث لا ينفع الندم وجمع من قدر عليه وبرز لقتاله بأربعين الف مقاتل فثبتوا مع ترافقهم على حد السيوف من اقبال الفجر الى ادبار النهار الى أن عجزوا عن الاصطبار وولوا الادبار وأعقبهم التتار ووضعوا السيف فيهم وقتلوا من المسلمين في ثلاثة أيام ماينوف على ثلثمائة وسبعين الف نفس وسبوا ورموا كتب مدارس بغداد في نهر الدجلة فكانت لكثرتها جسراً يمرون عليها ركباناً ومشاة وكانت هذه الفتنة من أعظم مصائب الاسلام وأخذوا المستعصم وأولاده وجماعته وأتوا به الى هولاكو فأستبقاه أياماً الى أن استصفى أمواله ودفائنه ثم رمي رقاب أولاده وأتباعه وأمر أن يوضع الخليفة في غرارة ويرفس بالارجل الي أن يموت ففعل به ذلك سنة ٦٥٦ هجرية ١٢٥٨ م وانقطعت خلافة بنى العباس وهم سبعة وثلاثون خليفة أولهم السفاح وآخرهم المستعصم

ثم ان الذين تبقوا من عائلة الملوك العباسية التجأوا يومئذ الى مصر فقبلهم الاتراك من مماليك الاكراد الايوبية الذين كانوا خلفوا ساداتهم قبل مدة في التملك على مصر ولا زال يتسمي فيها منهم خلفاء واحدا بعد واحد الى أن تسمى سبع عشرة خليفة في مدة مائتين واحدى وتسعين سنة حصل لهم في خلالها من سلاطينها أنواع التعظيم والاحتقار الى أن كان آخرهم (المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله) الذي أخذه معه السلطان (سليم) العثماني فاتح مصر وبعد ان بايع السلطان بالخلافة رجع الى مصر وأقام بها الى أن توفي سنة ٩٥٠ هـ ١٥٤٣ م وبه انقطعت من العالم الخلافة العباسية التى لم تكن في تلك المدة الا بالاسم فقط

﴿زمن بنى العباس﴾

« اللغة والآداب » وفي أيام الدولة العباسية فسدت أحكام اللغة العربية بمخالطة الاعجام خصوصاً في المدن والامصار بخلاف لغة البدو من العرب فانها كانت أعرق في العربية ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية فسد اللسان العربي

لذلك وكاد يذهب لولا ماحفظه من عناية المسلمين بالـكتاب والسنة ولما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام فسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق العجمى وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والـكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعياً بالقوانين المتدارسة من كلام العرب وبقيت اللغة العربية بمصر والشام وبعض المغرب لبقاء الدين وبالجملة ان التغيرات التي دخلت على هذه اللغه منذ صدر الاسلام الي عهدنا هذا واضحة لـكل من قابل لغة هذه الايام بالـكتابات التى دونها أهل البصرة والـكوفة وغيرهم

(الخط) كان الخط العربى في أول نشأته في دولة التبابعة من ملوك اليمن وهو المسمى بالخط الحميرى وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر أقارب التبابعة والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعه لقصور مابين الدولتين فتغيرت أوضاعه واختص بالحيرة وسمي بها ومن الحيرة تعلمه أهل الطائف وقريش فيما ذكر يقال ان الذي تعلم الـكتابة من الحيرة هو سفيان بن أميه ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن يقرب للعقل اكثر من غيره وقبل الاسلام بقليل وجد عند العرب نوعان من الخط وهما الحيري والنسخي ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملـكوا الممالك ونزلوا البصرة والـكوفه واحتاجت الدولة الى الـكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته فترقت الاجادة فيه ومن ثم عرف الخط الحيرى بالخط الـكوفي واستعمل هذا لـكتابة المصاحف ونحوها للمسكوكات والخط الـكوفي معروف الرسم لهذا اليوم أما النسخي فاستعمل في الرسائل العمومية

ثم انتشر العرب في الاقطار والممالك وافتتحوا أفريقيه والاندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية لما استبحر العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وخالفت أوضاع الخط ببغداد أوضاعه بالـكوفة في الميل الى اجادة الرسوم وجمال الرونق وحسن الرواء واستحكمت هذه المخالفة في الاعصار الى أن رفع رايتها ببغداد على بن مقلة الوزير ثم تلاه في ذلك على بن هلال الـكاتب الشهير بابن البواب ووقف سند تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها وبعدت رسوم الخط البغدادي وأوضاعه عن الكوفي حتى انتهى الى المباينة ومع مرور الايام أهمل الخط الكوفي وكان آخر استعماله فى المسكوكات المضروبة في مصر سنة ١٢٢٠ م وقام مقامه الخط النسخى

أما التغييرات التي حدثت على الخط النسخي بعد نشأته الي الآن فلا يعلم عنها سوي بعض الحقائق الاجمالية فالخط المغربى في شمالى افريقية له صورة خاصة به دون غيره من الخطوط

أما لاتراك الذين اقتفوا أثر الفرس في الخط فقد تفننوا فيه واهتموا بأمره حتى أوجدوا له أشكالا أشهرها التعليق والثلث والديواني والرقعة والفارسى والخط العربي بهذه الاشكال المذكورة منتشر حيثما وجد الاسلام فتراه في الصين وبنغال وتركستان وروسيا وشبه جزيرة البلقان وأواسط أفريقية وملقا

(الآداب والعلوم)

قال القاضي بن أحمد ان العرب في صدر الاسلام لم تعن بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند أفراد منها فهذه كانت حال العرب في الدولة الاموية فلما أدال الله تعالى للهاشمية من بني العباس وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من رقدتها فكان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور وكان مع براعته في الفقه كلفا فى علم الفلسفة وخاصة فى علم النجوم ثم لما أفضت الخلافة فيهم الي الخليفة السابع عبد الله المأمون تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم فى مواضعه وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه منها ما حضرهم فاستجاد له مهرة التراجمة وكلفهم أحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حرص الناس على قراءتها ورغبوا في تعلمها فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم

وقد قسم المحقق لوث الالماني تاريخ العلوم والآداب العربية الى قسمين أو عصرين الاول ما قبل الاسلام وهو العصر العربي الصرف الذي فيه كانت الآداب على الغالب من الشعر مع قليل من النثر والثاني وهو العصر الاسلامي وفيه لم تعد الآداب العربية محصورة في الجنس العربي الصرف بل انتقلت الى غيره بسبب الاختلاط الذي نشأ عن الفتوحات الاسلامية وقبل الكلام عن هذين العصرين يقول ان المدة التي كانت بها العلوم والآداب في حالة النمو والحياة هى مدة سبعمائة سنة ومن هذه المدة مدة ٤٠٠ سنة كانت فيها الآداب والعلوم قد بلغت عظيم الاعزاز ومن الاربعمائة سنة مدة ٢٠٠ سنة بلغت بها الآداب والعلوم أعلى درجات العز ومنتهى المجد فكانت المعارف بها زاهية زاهرة

أما المدة التي هى قبل الاسلام وبها كانت الآداب من الشعر مع قليل من النثر فموضع ذكرها كتب تاريخ آداب اللغة العربية

وأما المدة الاسلامية فتنقسم الي أقسام كثيرة

أولها مدة بني أمية وقد مر بنا الكلام عليها

ثانيها مدة زهو بني العباس وهى نحو ٢٠٠ سنة أي من سنة ١٣٢ هـ ٧٥٠ م الى ٣٣٩ هـ ٩٥٠ م وفي هذه المدة ظهرت التآليف وأخذ العلماء في تفسير القرآن وجمع الحديث ووضعوا الفقه وانتبهوا الى علوم الهنود والفرس والسريان واليونان وغيرهم من الاعاجم وأخذوا عنهم علومهم ودوّنوها وفي هذه المدة كان سقوط البيوتات العربية القديمة ونشأ بدلا منها بيوتات حديثة من العرب المجاورين لبغداد العاصمة الجديدة وقام معهم كثير من شعراء غير العرب وانتبه المسلمون الى اللغة فدوّنوها وكان زمن الكوفيين والبصريين وفي هذه المدة كثرت التصانيف في كل أنواع العلوم ونبغ عدد من العلماء ليس بقليل في نظم الشعر وفي الادب والفقه والنحو والفلك والطب والتاريخ والرواية والخط العربي والجغرافية والفلسفة وترجمة الكتب

ثالثها مدة الانحطاط وهى من سنة ٣٣٩ هـ ٩٥٠ م الى ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م وبها انقطعت خلافة بني العباس من بغداد وفي هذه المدة ضعف أمر الخلافة العباسية لحصول أمراء الديلم وبني بويه على السلطة السياسية وتسلط الاتراك السلجوقيون على أمراء بويه والديلم ومن ثم أخذت ملوك الطوائف ان تستقل وتقرب اليها أهل العلم ممن كان ببغداد وجوارها وفي أواخر هذه المدة أخذت الحروب الصليبية ان تؤثر في آداب اللغة واقتصر أهل العلم على مطالعة الكتب وتعليق الحواشي عليها وظهر الشعر التصوفى كديوان ابن الفارض ومنذ دخول المغول الى بغداد أخذت المعارف في الانحطاط والتقهقر لانهم كانوا من الامم الخشنه

وقد نبغ فى هذه المدة عدد من أهل العلم والادب

المدة الرابعة من سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م الي ٩٢٥ هـ ١٥١٧ م أي منذ سقوط بغداد فى يد هولا كو المغولى الى دخول السلطان سليم مصر وتنازل آخر العباسيين له عن الخلافة وفي هذه المدة أعدم تيمورلنك المعارف العربية في جهات ما بين النهرين وآسيا ولكنها زهت قليلا فى مصر أيام دولة المماليك ولعل قصة ألف ليلة وليلة ألفت في هذه المدة وقد نبغ في هذه المدة عدة أشخاص في فنون مختلفة

المدة الخامسه من سنة ٩٠٦ هـ ١٥٠٠ م الى ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م وفي هذه المدة كانت المعارف العربية في حالة النزع الا انه كان في القسطنطينية عدد قليل من أهل العلم اعتنوا بتفسير المؤلفات القديمة وشرحها ومن هؤلاء العلماء حاجي خليفة الذي جمع كتاباً أشبه بموسوعات العلوم أو بفهرست لاسماء الكتب ومؤلفيها

المدة السادسة من سنة ١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م الى الآن وفي هذه المدة كان احياء المعارف في مصر بواسطة محمد علي باشا الكبير ومن خلفه من أعقابه وتأثير التمدن الاوروبي على الشرق وتأسيس المطابع في الاستانة وبولاق وبيروت والهند (انتهى كلام لوث ببعض زيادة)

﴿أسباب سقوط الدولة العباسية﴾

(١) اقطاع خلفائهم الولايات القاصية لبعض الولاة وذراريهم مكافأة لهم على خدمة، فاستقلوا بها

(٢) ابعادهم أهل العصبية من العرب لتوهمهم ميلهم الى العلويين واستعاضوا عنهم بالفرس والترك فكانوا معهم كالمستجير من الرمضاء بالنار، فخرجوا عليهم

(٣) عدم سن نظام لولاية العهد، فولى أصحاب القوة في الدولة من الترك والديالم الصبيان والاطفال منصب الخلافة واستبدّوا هم بها

(٤) انتشار مذاهب الشيعة بتعضيد المستبدين بالملك من الفرس والديلم وغيرهما، حتى آل الامر الى استدعائهم التتار لنزع الخلافة من العباسيين وجعلها في يد العلويين فاكتسحوا الطائفتين

(٥) تكوين الدولة العباسية من عدة شعوب قوية ذات حضارة قديمة كل منها يعمل على اعادة دولته، فسهل ذلك انقسام الدولة الى عدة ممالك وإمارات أعقبها الفناء

مصر تحت حكم الخلفاء

(١) ملخص سياسي مرتب حسب السنين

﴿ الخلفاء الراشدون « سنة ١٨ — سنة ٤١ هـ » ﴾

(سنة ٦٤٠ — سنة ٦٦١)

سنة ٦٤٠ م — فتح مصر عمرو بن العاص قائد عمر بن الخطاب وأسس الفسطاط. ومنذ ذلك الحين صارت مصر عمالة يحكمها عمال من قبل الخلفاء وصارت الفسطاط حاضرتهم

سنة ٦٤٤ م — قتل عمر وتولى عثمان وتعين عبدالله بن سعد حاكما على مصر. وفي مدة عثمان

هاجر الى مصر كثير من قبائل العرب واستوطنوا وادي النيل واعتنق الاسلام كثير من القبط

سنة ٦٤٥ م — استولى مانويل عامل الروم على الاسكندرية فاستردها منه عمرو ثم خربها

سنة ٦٥٢ م — غزا عبدالله بن سعد النوبة وأخذ دنقله

﴿الخلفاء الامويون سنة ٦٦١ — سنة ٧٥٠ م﴾

سنة ٦٦٣ م — مات عمرو وهو حاكم على مصر وقيل انه خلف لاولاده سبعين كيساً مملوءة بالدنانير

سنة ٧٥٠ م — فر مروان الثاني آخر الامويين الى مصر حيث قتل ودفن في أبي صير الملق

﴿الخلفاء العباسيون سنة ٧٥٠ — سنة ٨٧٠ م﴾

سنة ٨١٣ ـ ٨٢٢ م — زار المأمون مصر حيث رقي المشروعات العلمية على اختلاف أنواعها

مصر تحت حكم الخلفاء

(٢) نظرة عامة (١)

ملاحظة: فتحت مصر فيما بين سنتي ١٨ و ٢٠ هـ (٦٣٩ — ٦٤١ م). وبعد قليل ألحق بها جزء من بلاد النوبة ثم بلاد برقة ثم بلاد افريقية (تونس)

﴿ شكل حكومة مصر ولواحقها ﴾

كانت هذه البلاد منذ افتتحها المسلمون الى أن تولاها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ولاية بحتة، أي معتبرة جزءاً من أملاك الخلافة يحكمها وال يرسل من قبل الخليفة، مطلق التصرف غالباً فيما يوافق سنن الاسلام وتقتضيه العدالة، ولأهل الرأي من قواد العرب ووجوه الناس وأكابر العلماء والفقهاء عنده قول مستمع، ورأي متبع. ولم يغير المسلمون في بدء فتحهم كثيراً من شكل النظام الاداري، وهو فى الجوهر تقسيم مصر الى كور أو أعمال برأس كلا منها حاكم خاضع فى ادارتها لاشارة الوالى ويصدر أوامره الى من تحت ادارته من رؤساء القرى، وذلك شبيه جداً بالنظام المتبع الآن. كذلك لم يغير العرب كثيراً من طرق الري وجباية الخراج وكتابة الدواوين، غير انهم جردوا بقايا الروم من أعمال الحكومة ووضعوها في أيدي الاقباط لعظيم ثقتهم بهم، وأبقوا لأنفسهم المناصب السياسية والدينية. ولما تعلم العرب فنون الادارة وكتبوا الدواوين بالعربية بدل القبطية في ولاية «عبد الله بن عبد الملك بن مروان» سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م)، وزاحموا القبط بغض

(١) عن تاريخ مصر الى الفتح العثماني

الشيء ، وحرموهم بعض مزاياهم تألبوا مراراً وخرجوا على العرب وحاربوهم ، وقابلهم هؤلاء بالقوة ، فلم يسعهم الا تعلم العربية واعتناق الاسلام ، فأسلم كثير منهم وصاهروا العرب وامتزجوا بهم وانتظموا في سلك الحكومة ، ثم أخذ نظام الحكومة الاداري يتغير بعدذلك بمناسبات الاحوال

وكان الولاة بحسب مقدرتهم وثقة الخليفة بهم : اما ولاة مطلقة لهم الحرية ،يقومون بأعمال جميع المناصب الثلاثة العظيمة التي تدور عليها رحي الولاية ، وهى امامة الناس في الصلاة وجباية الخراج وقيادة الحرب ، واما ولاة خاصة مقصورين على واحدة أو اثنتين منها . وكل وال خاص يرسل بعهد من الخليفة ولا يملك أحدهم عزل الآخر ، وان كان صاحب الحرب أو صاحب الصلاة له الزعامة والاشراف على غيره غالباً

وربما ولى الخليفة والياً عاماً على ولايات الغرب كلها أو بعضها فينيب هذا عنه بعهد منه والياً على مصر كما كان يقع في عهد بني العباس

ومن حقوق الوالى المطلق الصلاة بالناس في الاوقات الخمسة والجمعة والعيدين ، والخطبة بهم فيها وفي الحوادث العظام ، وانتخاب أعوانه من الحكام وجباة الخراج وقادة الجيوش،ونصب القضاة وأصحاب الشرطة والمظالم وغيرهم من كبار العمال ، بشرط انتخابهم من أشراف العرب أو أفاضل الموالى (١) المسلمين : وتنفيذ الاحكام والحدود من القصاص وغيره . ولا يرجع الى الخليفة غالباً في شيء من ذلك . فالوالى مستقل في الحقيقة نوع استقلال داخلي ، الا ان حكمه مؤقت قصير المدى فكان الخليفة يستبدل به غيره عند ظهور أي عيب فيه ولو صغيراً أو وقوع ظلم منه ،وربما كان ذلك سبباً في انصراف كثير من الولاة المصلحين عن القيام بالاعمال النافعة العظيمة

بني عمرو بن العاص عقب الفتح مدينة « الفسطاط » (٢) (وموضعها الآن جامع عمرو وماجاورها)

---

(١) الموالي هم سكان البلدان الاصليون أو من جرى عليهم رق ثم اعتقوا

(٢) قال « المقريزي » في وصف موضع الفسطاط ما يأتى

« اعلم ان موضع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يعرف بالجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ، ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، ويقيم فيه ما شاء ، ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك بالاسكندرية . وكان هذا الحصن مطلا على النيل ،وتصل السفن في النيل الى بابه الغربى الذي كان يعرف بباب الحديد . وكان بجوار هذا الحصن من بحريه وهي الجهة الشمالية أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق . وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى . . . »

وجعلها مقرا لامارته . وبقيت كذلك الي العصر العباسي ، فبنى (أبو عون) قائد جيش العباسيين المقتفين أثر مروان (آخر خلفاء الاموية الهارب الى مصر) مدينة العسكر « شمالي » الفسطاط حيث نزل عسكره ، فسكنها اكثر ولاة بني العباس الى زمن « ابن طولون »

﴿ الخراج والنفقات ﴾

لما فتح العرب مصر ضربوا على أهلها الجزية : جزية الرؤوس والارض فأما جزية الرءوس فكانت دينارين « حنيها واحداً » على كل رجل قادر على العمل ، وأعفى منها الصبيان والشيوخ والرهبان والنساء . وأما ضريبة الارض فكان على كل قرية نصيب يختلف باختلاف غلتها وعمرانها وخرابها ، وعلى أهل القرية من ذلك ضيافة من يمر عليهم من جند الحامية ثلاثة أيام ، وكان مجموع مايجبيه المسلمون من الجزية وخراج الارض أقل كثيراً مما كان يجبيه الرومان ، ولذاك أحب القبط وملاك الارض من الروم أنفسهم حكم المسلمين ونصحوا لهم في خدمتهم وكان لكل قرية مجلس محلى من رؤسائها يقررون ارتفاع القرية (أموال ضرائبها السنوية) ويوزعون أرضها على القادرين على زرعها . ويقومون بتأدية خراجها الى عمال الخراج . وكان ذلك في أول الفتح . ثم صاروا يؤدونها الى أصحاب الالتزام وهم الذين يرسو عليهم خراج النواحي مدة ثلاث سنوات بعد اعلان التزايد فيها بمسجد عمرو ، وهؤلاء يجمعون الخراج بواسطة أعوانهم ومعاونة الحكومة أحياناً ثم يقدمونه الى صاحب الخراج « شبيه بوزيري المالية والاشغال »

وكان اكثر الخراج يجي من جزية الرءوس التي تضرب على أهل الذمة فقط ، ويرسل جزء كبير منه للخليفة لقلة جالية العرب بمصر يومئذ وبلغ مجموع ماجباه عمرو من الخراج في السنة ١٢٠٠٠٠٠ دينار جمعت على الارجح على الوجه الآتي :

(١) ٣٠٠٠٠٠ جزية الاراضي عن الف الف وخمسمائة الف من الفدادين المزروعة « مليون ونصف »

(٢) ٨٠٠٠٠٠ جزية الرءوس على أربعة آلاف ألف من الذكور البالغين « أربعة ملايين »

(٣) ١٠٠٠٠٠ ضرائب شتى

فلما فشا الاسلام في القبط وكثر ورود قبائل العرب الي مصر وزاد عدد مقاتلتهم بها قل المتحصل من جزية الرءوس ، وكثرت النفقة على جنود الديوان ، فكان صافي الخراج بعدئذ دون ثلاثة آلاف الف ، واذا حسنت وجوه العمارة واستقصيت أبواب الجباية بلغ أربعة آلاف ألف، وقلما زاد على ذلك

﴿ القضاء والشرطة والمظالم ﴾

كان من حق الوالى بمصر تنصيب القضاة وعزلهم من غير مراجعة الخليفة . واستمر ذلك الى أوائل الدولة العباسية اذ ولى « أبو جعفر المنصور » ابن لهيعة القاضي بأمره ، وأجرى عليه ثلاثين ديناراً في الشهر

وكان قاضي الفسطاط ينيب عنه قضاة البلدان الاخرى ، أو يعينهم الوالى رأساً . وكان مجلس القاضي اما في المسجد الجامع غالباً واما في داره ، وقلما يجلس في دار الامارة . ولم يكن يشترط في القاضي أن يقضي بمذهب خاص ، بل يكون مجتهداً أو على مذهب أحد الأئمة. وكان منصب القاضي فى ذلك العهد من أهم المناصب وأكثرها عملاً ، وكان من أعماله الفصل في الدعاوي والاوقاف والنفقات ونصب الاوصياء ، وأحياناً تضاف اليه الشرطة والمظالم وبيت المال ، ولذلك كان القضاة يختارون من أغزر الناس علما وأكثرهم فضلا . ومن أعظم من اشتهر منهم بالفضل والاستقامة والعدل القاضي « غوث » بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، ولي قضاء مصر مراراً ، ولم يمنع عن الوصول اليه متظلم قط . ومنهم أيضاً « المفضل » خلفه ، وهو أول من أمر بتدوين الاسباب المبنى عليها الحكم بأكملها . وقد كان الكثير من القضاة يتنحى عن تقلد هذا المنصب لكثرة أشغاله وخطورة مسئوليته ، ولم يقبله « أبو خزيمة » الا بعد أن نادى الحاكم بالجلاد

أما الشرطة فكان يليها غالباً عامل خاص يسمى « صاحب الشرطة » (حكمدار البوليس) وله ما لهذا في زماننا تقريباً

وأما صاحب المظالم فهو الذي ينظر في القصص (١) والشكاوى التي ترفع اليه من الرعية تظلما من عمال الحكومة أو غيرهم ، فيفصل في بعضها بنفسه أو يحيل النظر فيها على القاضي . ونظيره الآن النائب العمومي وأقلام قضايا المصالح

﴿ المقاتلة ﴾

كانت تعرف رجال الجيش بالمقاتلة ، ويسمون أيضاً « أصحاب الديوان » أي أصحاب الاعطيات التي تصرف لهم في الديوان كل سنة . وكان كلهم من العرب ، بل كان كل عربي ينزل الى مصر يفرض له ولأولاده وعياله فرض في الديوان . وكانوا ينهون عن الاشتغال بالزراعة . ويعاقبون على ذلك

---

(١) القصص هي العرائض

لئلا ينسوا ملكة الحرب . ويقودهم في الحرب والى مصر . ولكن لما وفر عددهم وزادوا عن حاجة الديوان زاولوا الزراعة ودخلوا في غمار الفلاحين بالتدريج . وبقى العرب هم أصحاب الفروض في الديوان الى عهد الدولة العباسية ، فاشتركت معهم فيه المقاتلة من الفرس والترك حتى أمر « المعتصم » الخليفة العباسي « جازاه الله » باخراج العرب من الديوان وحرمانهم من العطاء ووضع الترك بدلهم فخلت الجيوش العربية ، وثاروا على الحكومة مراراً فقهرتهم ، ومن ذلك تضعضع سلطان العرب في مصر وزالت دولتهم ، واشتغلوا بالزراعة وصاروا مزارعين . وكان جزاء الدولة العباسية من الترك في مصر أن خرجوا عليها واستقلوا بها

﴿ الري والزراعة والتجارة ﴾

كانت الاعمال الخاصة بهندسة الري من كري الخلجان واقامة الاحواض والقناطر والجسور وتقدير الاقنية ونحو ذلك تقوم بشؤونها الحكومة نفسها في مبدأ الفتح ،ويتولى ذلك صاحب الخراج « صاحب المالية والاشغال » جرياً على النظام الذي كان متبعاً زمن الرومان

ثم لما ضعف شأن الولاة أضيفت هذه الاعمال الى أصحاب الالتزام فأهملوها وقل بذلك العمران تدريجاً . وكان أكثر ريها بالحياض النيلية فتقتصر على الزراعة الشتوية . وبعض أرض الفيوم والوجه البحري تروي بالترع والسواقي فتخرج الزراعة الصيفية أيضاً . وكان يزرع بمصر الكتان والقمح وباقي الحبوب وكثير من الكروم والنخيل والفاكهة

وكانت تجارة مصر الى الخارج في الحبوب والمنسوجات الكتانية التي كانت تضارع فيها وقتئذ أصنع أهل الدنيا

ومما كان يساعد على انتشار التجارة بين مصر وغيرها البحران الأحمر والأبيض ، ونهر النيل وكثرة الترع ، خصوصاً خليج أمير المؤمنين الذي كان يصل النيل بالبحر الأحمر ، وبقى الى صدر الدولة العباسية حتى ردمه المنصور

﴿ أهل البلاد ﴾

كان أهل مصر في أول الفتح هم جمهور الأقباط وبقايا الروم ومهاجرة العرب ، فكان القبط هم المزارعين وأرباب الوظائف الصغرى والوسطى . وكان العرب هم الحامية وأهل الحرب . ثم اشتغل العرب بعد نحو قرن بالزراعة . وأسلم كثير من القبط وصاهروا العرب ،فضربت على العرب المزارعين

الضرائب التى كانت تضرب على القبط فقبلوها اذ كانت معتدلة . ثم اشتط بعض العمال فى زيادة الضرائب وجباية الرءوس فكان ذلك سبباً فى كثير من الفتن

وكان القبط حينئذ على حال عظيم من الرخاء ، ومما قيل في وصف ذلك ان عجوزا منهم من أهل طاء النمل أضافت المأمون بجيوشه ثلاثه أيام ، وقدمت له هدية اربعة آلاف دينار من ضرب سنة واحدة(١)

ملخص تاريخ مصر

﴿ من عهد أن استقل بها أحمد بن طولون الى أن فتحها السلطان سليم العثمانى ﴾

﴿ الدولة الطولونية سنة ٨٧٠ ـ سنة ٩٠٥ ﴾

٨٧٠ م استقل احمد بن طولون بمصر وبني بها القطائع بعد دخوله فيها بسنتين وفي سنة ٨٧٦ شرع في بناء جامعه المشهور الذى بلغت تكاليفه مائة الف دينار وفي سنة ٨٧٨ أخذ دمشق واحتل سوريا وأرضاً أخرى بالجزيرة وتوفي سنة ٨٨٤ تاركا في خزينته عشرة ملايين دينار

٨٨٤ م خلف خمارويه ثاني أبناء أحمد السبعة عشر أباه وعمره عشرون سنة ولكن مالبث ان قتله أحد غلمانه في دمشق سنة ٨٩٥ نخلفه اكبر أولاده أبو العساكر وحكم بضعة أشهر وقتل نخلفه أحد اخوته أبو موسي هرون وحكم مدة قليلة وقتل في سرداقة وهو سكران سنة ٩٠٤

وفي السنة التالية أخذ جميع أسرة ابن طولون الى بغداد حيث أمر الخليفة المكتفي باهلاكهم جميعاً فهلكوا ودمرت القطائع وما جاورها بالحرق والنهب والسلب

الدولة العباسية الثانية سنة ٩٠٥ ـ سنة ٩٣٤

٩٠٦ م استبد محمد الخلنجي بملك مصر ثمانية أشهر ثم عزل وأقيم غيره من عمال العباسيين

٩١٣ م احتل القائد الفاطمي حباسة الاسكندرية ولكن الاسكندريين طردوه منها

٩١٩ م وقعت الاسكندرية مرة ثانية في أيدي جنود الفاطميين ووصل أسطولهم الى مياهها ولكن المصريين طردوه منها

٩٢٥ م أغار الفاطميون مرة أخرى على مصر ولكنهم ردوا عنها

الدولة الأخشيدية سنة ٩٣٤ — سنة ٩٦٨ م

٩٣٤ م استبد أبو بكر محمد بن طغج المسمى بالاخشيدي بملك مصر لما رأى انقسام

---

(١) الحكاية مبسوطة في كتاب خطط المقريزي في فصل نزول العرب بمصر من الجزء الاول وفي غيره ببعض تغيير

العباسية ومكث حاكما عليها الى أن مات بدمشق سنة ٩٤٦ وكان مولعاً بالعمارات وفى عهده زار مصر المسعودي المؤرخ الشهير

٩٤٦ م أبو القاسم محمد الاخشيدى

٩٦١ م على بن محمد الاخشيدي

كان كلاهما حا كما بالاسم فقط وأما فى الحقيقة فكان العوبة في يد الخصي الاسود الذى كان وصياً عليهما وكان عليّ يتقاضى أربعمائة الف دينار في السنة وله أن يفعل مايشاء الا التداخل فيأمور الحكومة

٩٦٩ م استبد بالملك أبو المسك كافور ولقب بالاخشيدي وطلب من الخليفة المطيع لله أن يثبته فى مصر ففعل فأعاد الخطبة للعباسيين وكان مولى حبشياً اشتراه محمد الاخشيدى من زيات بعشرة دنانير وعينه ولياً على أولاده وتوفي كافور سنة ٩٦٨ ووقع الاضطراب في البلاد حتى استولت عليها الدولة الفاطمية سنة ٩٦٩

﴿ الدوله الفاطمية سنة ٩٦٩ ـ سنة ١١٧١ ﴾

قامت الدولة الفاطمية في الجزء الغربي من أفريقيه سه عقب حركة دينية قام بها الشيعة زاعمين انهم من ذرية فاطمة الزهراء بنت الرسول وانهم بذلك أولى بالخلافة

٩٦٩ م دخل (جوهر الصقلي) قائد الجيش الفاطمي الفسطاط ونادى لسيده (المعز لدين الله) ثالث الخلفاء الفاطميين واستولى على البلاد بدون مقاومة وأسس حاضرة جديدة سماها القاهرة لظهور الطالع القاهر وتمت بنائها الى حين بدىء في حفر الاساس وقد خفف جوهر الضرائب وشق الترع وأجبر تجار القمح على بيع بضاعتهم بأثمان موافقة واتخذ وسائل أخرى لتخفيف ويلات الطاعون الذى كان ضارباً أطنابه فى مصر ولكن الطاعون اشتدت وطأته حتى لم يعد في الامكان دفن الموتى بالسرعة الكافية فكانت تلقي جثثهم في السبل وجوهر هذا هو الذي أسس الازهر سنة ٩٧٠ وأتمه سنة ٩٧٢

٩٧٣ م دخل المعز نفسه القاهرة ونزل في القصر الذي أعده له جوهر وأقام فيها حتى توفى سنة ٩٧٥ وكان حكيما كريماً أديباً وقد أدخل في حوزته بلاد الشام

٩٧٥ م اشتهر العزيز بن المعز بالشجاعة وحب الصيد والعلم والتسامح وكانت احدى زوجاته نصرانية وأخواها بطريقين على الاسكندريه وبيت المقدس وفي عهده كانت مصر متمتعة بالسلام

والرفاهية واتسعت مملكته حتى اتصلت بمكة وصار يدعي له في المساجد من الاتلنتي الى البحر الاحمر وفي اليمن والحجاز والموصل

٩٩٦ م ثم خلفه الحاكم بأمر الله وهو ابنه لزوجته النصرانية تولى في الحادية عشرة من عمره تحت وصاية (برجوان) ولما خرج من وصايته أشار عليه الدرازي بأن يدعي ان روح علي حلت فيه ففعل وأسس في سنة ١٠٠٥ دار الحكمة لنشر تعاليم الشيعة وأنشأ مرصداً على المقطم لدراسة الفلك وأمر بالقسطاط لخرق واستبدل اسمه بلفظ الجلالة في البسملة وخرج ليلة الى المقطم راكباً كعادته ولم يعد فقيل انه قتل ولكن الدروز يعتقدون انه اختفى بارادته واجتنب الدنيا لكثرة شرورها وانه سيعود اليها يوما ما ليهدى الناس الى الخير

١٠٢١ م خلفه ابنه (الظاهر) وهو في السادسة عشر من عمره فقيت أمور الدولة بيد عمته مدة أربع سنوات ويقال انه أمر بدعوة الفين وستمائة وستين مغنية وادخالهن في مسجد ثم بتغليق أبواب المسجد والبناء عليهما بالطوب حتي مات المغنيات كلهن بألم الجوع أما هو فمات بالطاعون سنة ١٠٣٦

١٠٣٦ — ١٠٩٤ م تخلفه (أبو تميم معد المستنصر) وهو فى السابعة من عمره فكان الحكم في يد أمه السودانية ويد سيدها القديم وكان يهودياً من (تستر) وفي مدته نزل بمصر قحط استمر سبع سنين وكانت ويلاته بحيث أكل الناس بعضهم بعضاً وكانت الكلاليب تدلى من النوافذ لاقتناص المارة فيقتلون ويطبخون وكان اللحم البشري يباع جهاراً في الاسواق

وفي سنة ١٠٤٣ بدأت سلطة الفواطم تحل في الشام . وفي سنة ١٠٦٠ أخذ السلاجقة حلبا . وفي سنة ١٠٧١ فتحوا فلسطين ودخلوا أورشليم وبعد ذلك بخمس سنوات أخذ دمشق ففقدت مصر كل فلسطين وسوريا

١٠٩٤ — ١١٠١ م استرد (المستعلي) سابع أولاد المستنصر أورشليم ومدن شاطيء الشام ولكن جنود الحرب الصليبية الاولى سلبوه هذه الحقوق وذبحوا سبعين الفاً من المسلمين وحاول (بلدوين) ابن ملك أورشليم الفرنسوي فتح مصر فلم يفلح

١١٠١ — ١١٣٠ م ولم تنثن عزيمته بعد ذلك بل أعاد الكرة عليها في السنة التالية من حكم الآمر بن المستعلي فهزمه المصريون هو وسبعمائة من فرسانه وصار للصليبيين ملك فلسطين وسائر سواحل الشام ولكن (بلدوين) عاد وغزا مصر وأحرق (البيلوزه) الى (تنيس) ولكن المرض عاقه

عن السير بعد ذلك

وفي سنة ١١٣٠ قتل (الآمر) وهو راجع من جزيرة الروضه قتله عشرة من الحشاشين (طائفة الباطنية)

١١٦٠ — ١١٧١ لم يؤثر شيء مهم عن الثلاثة الذين تولوا الحكم من سنة ١١٣٠ الى سنة ١١٦٠ وهى السنة التي ولى الامر فيها العاضد آخر الخلفاء الفاطميين

تولى هذا الخليفة وعمره تسع سنوات وينحصر تاريخه في قصة النزاع الذي قام بين شاور، حاكم الصعيد وضرغام اللخمي الذي أبلى بلاء حسناً في محاربة الصليبيين بغزه

ولما غلب شاور على أمره وطرد من مصر لجأ الى «نور الدين» بحلب الدي أعانه على استرداد السلطة بجنود المرتزقة من الاتراك تحت قيادة «شيراكوه» و «صلاح الدين» ابن أخيه ولكن شاور اختلف مع شيراكوه واستعان عليه بأماريك الاول ملك أورشليم الذى جاء الي مصر لاخراج الاكراد فخرج بهم شيراكوه بمقتضي معاهدة عقدت بين نور الدين وأماريك ثم عاد الاكراد لغزو مصر فردهم أماريك عنها وأراد امتلاكها فاستعان شاور بنور الدين الذي أرسل صلاح الدين وشيراكوه مرة أخرى لاخراج أماريك فنجح شيراكوه في صده وظفر بشاور وقتله وتولى الوزارة بدله وبعد موته تولاها صلاح الدين ومكث وزيراً للعاضد حتى مات سنة ١١٧١ فصار لصلاح الدين وحده ملك مصر وبذلك انقضت دولة الفاطميين

﴿ الدولة الايوبية سنة ١١٧١ — سنة ١١٩٣ م ﴾

١١٧١ — ١١٩٣ حكم صلاح الدين أربعاً وعشرين سنة منها سنتان وزيراً للعاضد ولكنه لم يقم في مصر الا ثماني سنوات وكانت ولادته في تكريت على الفرات سنة ١١٣٧ وهو ابن أيوب أحد ضباط الاكراد الذين كانوا في خدمة نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام ولما استقل بمصر جعل الخطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء وضم الى ملكه الحرمين الشريفين واليمن وأخذ طرابلس من النورمنديين (سكان شمال فرنسا) ثم فتح الشام وما بين النهرين ودمر مملكة أورشليم المسيحية سنة ١١٨٧ بانتصاره على الصليبيين في وقعة حطين (بالشام) وهو الذي حصن القاهرة بأسوار منيعة وبنى القلعة وحفر بئر الحلزون الى عمق ٢٨٠ قدماً وكان القائم بهذه الاعمال الوزير بهاء الدين الاسدي وهو خصى فارسي يلقب بقراقوش وكان بناء القلعة وجسر الجيزة من حجارة الاهرام الصغيرة وكان حكم صلاح الدين أبهى عصور مصر في القرون الوسطى . أما بعد موته فقد انقسمت

مملكته بين اخوته وأولاد اخوته ولكنها لم تلبث ان آلت لاخيه سيف الدين العادل وبعد موته انقسمت بين أولاده وأولهم

١٢١٨ ـ ١٢٣٨ م «الملك الكامل» وكان على جانب عظيم من الهمة وحسن السياسة أخذ الصليبيون منه دمياط ولكنه استردها ثانياً ثم عقد مع الامبراطور فريدريك الثانى معاهدة صار بمقتضاها للامبراطور الحكم على أورشليم ومدن شاطيء الشام لمدة عشر سنوات وهو الذي أنشأ مدينة المنصورة وبنى القبة العظيمة التي على ضريح الامام الشافعي . وخلف الكامل ابناه العادل الثانى الذي لم يلبث ان خلعه أخوه

١٢٤٠ ـ ١٢٥٠ م «الصالح نجم الدين أيوب» . وهو الذي جاء فى عهده الى مصر «لويس التاسع» الفرنسى سنة ١٢٤٩ زعيم الحرب الصليبية السادسة واستولى على دمياط ولكنه أسر هو وجيشه عند المنصورة على يد «توران شاه» الذي خلف أباه الصالح وفي أثناء المخابرات بشأن اطلاق سراح لويس قتل توران شاه أحد الحرس المسمين بالمالك

﴿ دولة المماليك سنة ١٢٥٠ ـ سنة ١٥١٧ ﴾

أصل المماليك سلاطين مصر أرقاء من الاتراك والشركس اشتراهم الصالح أيوب ليكونوا في حرسه وأول هذه الاسرة «شجرة الدر» أرملة الصالح ولكن السلطة الاسمية بقيت في موسى عقب الايوبيين بضع سنوات وتولى بعده جملة من المماليك منقسمين الى أسرتين البحرية والبرجية واستمروا يحكمون مصر والشام الى أوائل القرن السادس عشر ورغماً من ان مدد حكمهم قصيرة ومشحونة بالحروب الداخلية وحوادث القتل كانت مصر في عهدهم متمتعة بحكومة منتظمة ولا تزال القاهرة ملأى بالشواهد الدالة على حبهم للفنون الجميلة وبناء العمارات

على ان صفاتهم الحربية لم تكن أقل ظهوراً في مقاومتهم للصليبيين وقبائل التتر الذين اكتسحوا آسيا وكانوا خطراً عظيما على مصر في القرن الثالث عشر

﴿ المماليك البحرية سنة ١٢٥٠ — سنة ١٣٨٢ ﴾

١٢٦٠ـ١٢٧٧ م «ركن الدين الظاهر بيبرس» هو أول من تلقب من المماليك بلقب سلطان وكان من أقدرهم وأعزهم شأنا استأصل مملكة أورشليم المسيحية في أربع حروب كبيرة وهو الذي استدعى الى القاهرة من نجا من العباسيين عند اغارة المغول على بغداد وجعل أحدهم خليفة وهو أحمد

الملقب بالحاكم بأمر الله وجعل الخلافة في عقبه من بعده

١٢٧٩ ـ ١٢٩٠ م تولى المنصور قلاوون باغتصابه الملك من أحد أبناء الظاهر وقد نجح في رد اغارة المغول وعقد معاهدات مع بعض أمراء الفرنج في مدن الشام الساحلية وهو الذي بني المارستان الشهير باسمه ولا يزال به عيادة رمدية يقوم بها أطباء من قبل ديوان الاوقاف

١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ م «الاشرف خليل» هو الذي خلص عكا من يد المسيحيين وكانت آخر ما بقي في أيديهم

١٢٩٣ ـ ١٣٤٠ م «الناصر محمد» خلف أخاه خليلا وسنه تسع سنوات وسبباً للانقسامات الداخلية التجأ الى أمراء الشام الذين أعانوه على العودة الى ملكه ولكنه مالبث ان طرد ثانية ثم عاد في السنة نفسها وبقي حاكما الى أن مات والسبب في توالي عزله سوء التفاهم بينه وبين عماله أمراء مصر ولكنه أحسن علاقاته مع أمراء الشام خصوصاً اسماعيل ابا الفداء المؤرخ الشهير كما ان علاقاته مع الرعية كانت حسنة فقد اشتهر بينهم بالكرم والتسامح مع رؤساء الاديان غير الاسلامية

وللحصول على المبالغ الطائلة اللازمة لبلاطه وانشاء المباني التى كان مولعا بها أقام عمالا من المسيحيين علي الجمارك والمصالح المالية الاخرى

١٣٤٧ ـ ١٣٦١ م «حسن الناصر» سادس أولاد الناصر محمد تولي وهو قاصر فكثر طغيان الامراء وزاد الطين بلة نزول الطاعون بمصر بعد توليته بسنه واستئصاله شأفة أسرات بأسرها فضمت أملاكهم الى جانب الحكومة

وقد خلع السلطان حسن سنة ١٣٥١ ولكنه عاد الى الملك بعد ثلاث سنوات وبقى فيه الى أن قتل وهو الذي بنى الجامع الشهير باسمه قرب القلعة على الطراز العربي المصري وهو بعد من أفخم الآثار

﴿المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ — سنة ١٥١٧﴾

كان جميع المماليك البرجية من الشركس ما عدا اثنين هما «خوش قدم» و«تمربغا» فانهما من أصل رومي وسموا بالبرجية لانهم كانوا يسكنون البرج (القلعة)

١٣٨٢ ـ ١٣٩٩ م السلطان برقوق كان مملوكاً شركسياً نجح في اغتصاب الملك من حاج أحد احفاد الناصر وكان غير محبوب عند الامراء فعزلوه سنة ١٣٨٩ ولكنه عاد فدخل القاهرة ظافراً بعد سنة

من خروجه وقد نجح نجاحاً عظيما في محاربة المغول تحت قيادة تيمورلنك والعثمانيين تحت قيادة بايزيد

١٣٩٩ — ١٤١٢ ثم خلفه ابنه «فرج» وعمره ثلاث عشرة سنة . وفي أوائل حكمه عاد العثمانيون ثم المغول الى مهاجمة الاملاك المصرية فردهم فرج الي دمشق ولكنه اضطر الى الرجوع الي القاهرة بسبب الانقسام الذي حصل بين أمرائه وبعد أن هزم المغول العثمانيين في انقرة عقد فرج مع تيمورلنك معاهدة صلح . وفي أواخر حكمه زاد طغيان الامراء خصوصاً المؤيد فاضطر فرج أخيراً الي النزول عن الملك ثم قتل

١٤١٢ — ١٤٢١ خلف المؤيد فرجاً وكان أكثر حكمه في حروب مع أمراء الشام وقد انتصر عليهم بفضل ما كان لابنه ابراهيم من المهارة في الامور الحربية وهو الذي أجبر النصارى واليهود على اتخاذ اشارات تميزهم من المسلمين

١٤٢٢ — ١٤٣٨ م الاشرف برسباي وكان وصياً على أحد أطفال المماليك ثم استبد بالملك ونجح نجاحاً تاماً في محاربة المغول وفتح جزيرة قبرص

١٤٦٨ — ١٤٩٦ م الاشرف قايت باي كان من أواخر سلاطين المماليك المستقلين وبفضل ما أوتيه من الحكمة السياسية والمهارة في القيادة الحربية نجح في حفظ مكانه على الرغم من تعديات الاتراك في عهد بايزيد ومحمد وكان يردهم أحياناً بخسارة جسيمة ولكنه اضطر أخيراً بسبب عصيان مماليكه الى النزول عن الملك سنة ١٤٩٦ وقد بنى مسجدين وعمر كثيراً من المساجد الاخرى والآثار

وفي عهده (سنة ١٤٩٢) أصيبت مصر بالطاعون فمات بالقاهرة وحدها اثنا عشر ألفاً في يوم واحد .

١٥٠١ — ١٥١٦ م قانصوه الغوري كان عبد القايت باي ملك وهو فوق الستين من العمر ولكنه كان من الهمة بحيث أخضع العاصين من الامراء وكانت مطامعه ترمي الى ما وراء الحدود المصرية فجهز باشارة البنادقة أسطولا لاخراج البرتغاليين من الهند وقد انتصر على أحد أمرائهم في موقعة بحرية على سواحل بلوخستان ولكنه اضطر الى التقهقر الى بلاد العرب

أما التجارة المصرية التي كانت قد نقصت كثيراً بسبب اكتشاف طريق الرأس الى الهند على يد البرتغاليين فزادها نقصاً ارتفاع الضرائب وقلة العملة وقد وقع الغوري قتيلاً في ساحة القتال الذي حصل بينه وبين السلطان سليم الاول في مرج دابق شمالي حلب

١٥١٦ — ١٥١٧ م طومان باي أراد رد اغارة الاتراك على مصر فهزمه السلطان سليم الأول وأخذ القاهرة عنوة وشنق طومان باي سنة ١٥١٧ ومن ذلك الوقت صارت مصر ولاية عثمانيـة . ونزل الخليفة المتوكل العباسي آخر العباسيين في مصر عن السلطة الاسمية لسلاطين العثمانيين فصار لهؤلاء الخلافة والسلطان على المصريين الى الآن اه

مختصر تاريخ الدولة العثمانية

أصل الاتراك العثمانيين عشيرة صغيرة من قبيلة أغوز هجرت خراسان سائرة نحو الغرب فراراً من اغارة المغول والتجأت الى أسيا الصغرى في أوائل القرن الثالث عشر للميلاد وقد كافأهم السلطان السلجوقي « الامير علاء الدين سلطان قونيه » على معاونتهم اياه في حروبه مع التتر بالترخيص لهم برعي قطعانهم في الاقليم المجاور « لبثنيا » من أعمال بيزنطيا « دولة الروم الشرقية » وجعل مدينـة « سيكود » حاضرة لهم وفيها ولد سنة ١٢٥٨ ميلادية « لارطغرل » المتوفي سنة ١٢٨٨ م (عثمان) مؤسس الاسرة العثمانية التي عددها خمسة وثلاثون سلطاناً من عصبة رجل واحد . وقد أزاح عثمان الحدود البيزنطية الى الغرب وتوفي رحمه الله في ٢١ رمضان سنة ٧٢٦ هجرية ودفن في مدينة (بورصه)

وأما ابنه « أرخان » الاول من سنة ١٣٢٦ — ١٣٦٠ فهو الذي أخذ بروسه و (نيقيه أو نيسيه) وأسس فرقة الانكشارية (تحريف ايكيجاري) أي الجيش الجديد التي كانت زهرة الجيوش العثمانية وفي سنة ١٣٥٨ م عبر بجيوشه مضيق الدردنيل وأقام حاميـة في غليبولي وشرع في فتح الاقاليم البيزنطية في أوروبا

وفي عهد خلفه السلطان الغازي « مراد خان الاول » من سنة ١٣٦٠ ـ ١٣٨٩ استولى العثمانيون على أدرنه (فتحها البكلريك لا له شاهين) ١٣٦١ سلمها قائدها الرومي بعد قتال قليل لما داخله من اليأس ولاهمية موقعها الجغرافي جعلت عاصمة للسلطنة العثمانية « الى أن فتحت مدينـة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ »

وانتصروا على ضفاف نهر مارتزا وفي قوصوه (وهو سهل في غرب تراقية نشب فيه قتال سنة ١٣٨٩ بين (لازار) ملك الصرب ومراد الاول وكان الحرب فيه شديداً يشيب الولدان وبعـد مدة طويلة دافـع في خلالهـا الصربيون دفاع الابطال رجحت كفة المسلمين بانضمام

عشرة آلاف من الاعداء اليها وضموا اليهم مملكة الصرب فأصبحت جزءاً من مملكة مراد)
وبانتصار بايزيد الاول من سنة ١٣٨٩ الى سنة ١٤٠٢ فى نيقوبوليس على أشجع فرسان أوروبا
تأكد امتلاكه لشبه جزيرة البلقان بأجمعها ماعدا القسطنطينية وماجاورها ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية
الشرقية وقتئذ الا اغارة تيمورلنك على أسيا الصغرى وهزيمته للسلطان بايزيد المذكور هزيمة منكرة
فى واقعة أنقره سنة ١٤٠٢ وأخذه أسيراً « وسبب اغارة هذا التتري أن الامير أحمد جلاير صاحب
بغداد والعراق التجأ الى السلطان بايزيد حينما هاجر (التتر) فأرسل تيمورلنك يطلبه ولما
رفض الطلب أغار بجيوشه الجرارة وافتتح سيواس بأرمينيا وقطع رأس ابن السلطان ولذلك جمع
بايزيد جيوشه وقاتل قتال الابطال ولكن انضمام بعض فرق جيشه الى الاعداء مكن تيمور من
الظهور عليه حتي سقط السلطان أسيراً فعامله أولا بالحسنى ولكن شدد عليه لما حاول الهرب مراراً
عديدة »

وكادت هذه الضربة تقضي على مملكة وسعت ما بين نهر الطونة ونهر العاصي ولكنها قامت
من وهدة الاضمحلال علي يد محمد الاول الذي بسياسته الرشيدة أمتعها بفترة من الزمن تقضت في
توطيد السلام وتوثيق عرا الاحكام

ولذلك أمكن (مراد الثاني) من سنة ١٤٢١ — ١٤٥١ حماية الدولة من اغارة هنيادى أمير الافلاق
والانتصار في ورنة سنة ١٤٤٤ علي جيش عظيم من المسيحيين الذين كانوا قد نقضوا العهد وحاربوا
المسلمين حرباً دينياً

ولم تكن نتيجة هذا النصر المبين قاصرة على أمن الاتراك من اغارة اعدائهم عليهم من جهة
الشمال بل كانت فاتحة لسلسلة انتصارات استمرت نحو قرنين بدون انقطاع ففتحت القسطنطينية على
يد محمد الثاني الملقب بالفاتح

فتح القسطنطينية (١)

حاصر السلطان المدينة فى أوائل ابريل سنة ١٤٥٣ من جهة البر بجيش يبلغ ٢٥٠ الف جندى
ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من ١٨٠ سفينة وأقام حول المدينة بطاريات من المدافع الجسيمة تقذف
كرات من الحجر الى مسافة ميل وفي أثناء الحصار اكتشف قبر أبي أيوب الانصاري

(١) ملخصة عن تاريخ العثمانيين لمحمد فريد بك

ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الروم هذه الاستعدادات استنجد بأوروبا فلبى طلبه أهالى جنوه وأرسلوا اليه عمارة بحرية حاربت السفن العثمانية ودخلت المدينة بالرغم منها وبعدها أخذ السلطان يفكر في طريقة لدخول مراكبه الى المينا لاتمام الحصار براً وبحراً فخطر في باله أن ينقل المراكب الى البر ليجتازوا السلاسل الموضوعه فتم هذا الامر الغريب برص الواح من الخشب صبت عليها كمية من الزيت والدهن لسهولة انزلاق المراكب

وفي يوم ٢٤ مايو سنة ١٤٥٣ (١٥ جمادي الاولى سنة ٨٥٧) أرسل السلطان محمد الى قسطنطين يخبره بأنه لو سلم اليه البلد طوعا يتعهد له بعدم مس حرية الاهالى وأملاكهم فرفض القيصر وأمرت الجموع العثمانية بالاستعداد للهجوم في يوم ١٩ مايو سنة ١٤٥٣ الموافق ٢٠ جمادى الاولى سنة ٨٥٧ فتسلقوا الاسوار في ذلك اليوم ودخلوا المدينة من كل فج وجعلت كنيسة القديسة صوفيا مسجداً جامعاً وبعد اتمام الفتح أعلن ان السلطان لايعارض في اقامة شعائر الدين المسيحي وأنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم ووجه محمد الثاني التفاته الى ضم الاقاليم الاخرى فاستولوا على شبه جزيرة القرم وصارت جزائر بحر الارخبيل أملاكا عثمانية وخفق العلم العثماني على قلعة أرانتو في ايطاليا نفسها

﴿ سليم الاول ﴾

وفي مدة سليم الاول سنة ١٥١٢ — ١٥٢٠ التي لم تزد عن ثماني سنوات تمكن العثمانيون من ضرب الجزية على ملدافيا ومن التغلب على الفرس وضم كردستان وديار بكر الى أملاكهم وعلى المماليك وأخذ منهم الشام ومصر وبلاد العرب سنة ١٥١٧ ولم يكتف السلطان سليم بأن صار في يده الحرمان الشريفان بل تسلم من يد آخر الخلفاء العباسيين وهو المتوكل بالقاهرة مخلفات الرسول وصار له حق الخلافة الذي بمقتضاه صار المسلمون يدينون لسلاطين آل عثمان

﴿ سليمان القانوني ﴾

على ان السلطان سليمان القانوني من سنة ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ كسف أعمال سليم بما أتاه من الاعمال الباهرة فقد طرد فرسان رودس من مكمنهم سنة (١٥٢٢) وفتح بلغراد وحطم جيش المجر في واقعة موهكس سنة (١٥٢٦) حيث قتل ملكهم لويس الثاني وعشرين ألفاً من جنده وبذلك صارت

المجر من سنة ٩٣٢ هجريه أو سنة ١٥٢٦ عمالة تركية وبقيت كذلك مدة قرن ونصف وحاصر فينا نفسها ومع انه لم يخضعها تماماً أجبر فردنياند حاكمها على أداء الجزية

وليس استحقاق السلطان سليمان لقب الاكبر مبيناً على كفاءته وحكمته اللتين لا يختلف فيهما اثنان ولا على سلسلة نجاحه الباهر فقط بل على انه بقي محافظاً على مركزه السامي في عصر عظمة أوربا عصر (كالروس الخامس . شارلكان ملك اسبانيا وأمبراطور المانيا) وفرنسيس الاول ملك فرنسا واليصابات ملك انكلترا وليون العاشر من أكبر البابوات عصر كولمبوس الايطالي ورالي الانجليزي المكتشفين

ففي أعظم أيام كارلوس ضم سليمان هنجاريا وحاصر فينا

وفي أعظم أيام عمارات البحر وأمرائه اكتسح سليمان البحار الى سواحل أسبانيا ونشر القبودان خير الدين باشا بربرسا والقبودان بيالى التابعان له الخوف والفزع على شواطىء البحر الابيض المتوسط وطرد الاسبانيين من ولايات المغرب وتغلبا على البابا والامبراطور والدوج (علم على رئيس جمهورية البندقية) في المعركة البحرية العظيمة التي حصلت عند بريفيزا وامتدت دولة سليمان من بودابست على نهر الطونه الى اسوان عند الشلال الاول للنيل ومن الفرات الى بوغاز جبل طارق فكان حكم سليمان نهاية العظمه العثمانيه

أما الانحطاط فابتدأ بالضربة التي أصابت قوة تركية البحرية عند انتصار الدوق يوحنا قرب ليبانتو سنة ١٥٧١ وعلى الرغم من فتح جزيرة قبرص في السنة نفسها والانتصار على النمساويين في بعض المواقع لم يعد الاتراك يعدون خطراً على أوربا

﴾ مراد الرابع ﴿

وقد أضاف مراد الرابع بغداد الى الاملاك العثمانية سنة ١٦٣٨ وانتزعت كريد وجزائر أخرى من يد البنادقة سنة ١٦٤٥ في عهد ابراهيم الاول ولكن هزيمة الاتراك بعد ذلك في موهكس واضطرارهم الى عقد محالفتي كرلوفتش وبساروفتش سنة ١٦٩٩ و ١٧١٨ كل ذلك كان سبباً في استيلاء النمسا على المجر وترنسلفانيا واستقلال بولونيا وأخذ الروسيا أزاق كما أخذت البندقية سواحل موره ثم بقيت حدود الدولة ثابتة من ذلك العهد الى التجزئة الحديثة التي حصلت في أول عهد عبد الحميد الثاني السلطان السابق

على ان تركيا نفسها كانت فريسة لمطالب جندها المتمردين ورغماً عما عمله محمود الثاني كبير المتأخرين من السلاطين مثل أهلاكه الانكشارية سنة ١٨٢٦ وقيامه بجملة اصلاحات أخرى لم يتمكن من ايقاف سير الانحلال الذي كان سارياً في جسم الدولة ففي أفريقيا مهدت مصر لنفسها الاستقلال بانتصار محمد علي باشا على الاتراك في جملة مواقع بالشام والاناضول ودخلت الجزائر في حوزة الفرنسيين سنة ١٨٣٠ وفي أوروبا انفصلت منها اليونان سنة ١٨٢٨ ثم منحت مصر في عهد عبد المجيد الاستقلال الداخلي وصدر لمحمد علي فرمان بالوراثة سنة ١٨٤١ وصارت بعيدة عن دائرة النفوذ العثماني بعد الاحتلال البريطاني واستمرت الروسيا في مشاغباتها مع الدولة وانتصرت عليها في في حرب القرم فتداخلت انجلترا وفرنسا في الامر فانتصر المتحالفون على الروسيا في سباستبول وحالوا دون مطامعها سنة ١٨٥٥

واكثر خسائر الدولة الخطيرة كانت في أوروبا في عهد السلطان عبد العزيز فقد استقلت رومانيا سنة ١٨٦٥ والصرب بعد ذلك بسنتين ثم عادت مطامع الروسيا التى كانت قد أوقفت باشتراك انكلترا وفرنسا في حرب القرم الى الظهور فشهرت الحرب على تركيا ووصلت بجنودها الى أبواب الاستانة ولكن الدول تداخلت في الامر وعقدت معاهدة برلين سنة ١٨٧٨

ورغماً من أن الروسيا لم تنل من وراء هذه المعاهدة شيئاً كبيراً ولكن نتيجتها كانت ابتداء تجزئة الدولة في أوروبا فصارت رومانيا والصرب مملكتين منفصلتين. واعترف باستقلال الجبل الاسود وأعطيت تساليا لليونان واحتلت النمسا البوسنه والهرسك ثم ألحقتا بها سنة ١٩٠٩ وتأسست ولاية جديدة تحت سيادة الدولة العلية وهي ولاية البلغار ثم ضمت اليها ولاية الروملي الشرقية سنة ١٨٨٥ فصارت مملكة مستقلة ١٩٠٩ وبذلك حرمت تركيا من آخر ملك لها شمالي البلقان وانحصرت أملاكها فى أوروبا في اقليم ضيق ينطبق على تراقيا ومقدونيا وأبروس وايليريا ومع ذلك فقد انتزعتها منها الدول البلقانية في حربها معها سنة ١٩١٣ وأصبحت في أوروبا لا تزيد عن الاستانة وضواحيها بدلا من امتدادها الى أبواب فينا كما كانت فى أعظم أيامها في عصر السلطان سليمان

وكانت قد صدرت في سنة ١٩١٢ ارادة سلطانية بمنح طرابلس وبرقة الاستقلال الداخلي وصدر في الوقت نفسه أمر ملوكى من رومية بضم الاقليمين المذكورين الى الاملاك الايطالية

مصر فى عهد الدولة العثمانية

١٥١٧ — ١٧٩٨

١٥١٧ — ١٥٢٠ م بعد أن صارت مصر تابعة للعثمانيين دينياً وسياسياً شرع السلطان سليم في تأييد سلطته فيها فولى عليها خيري بك الذي كان من كبار رجال قانصوه الغوري وانحاز الى العثمانيين ومنحه لقب باشا وجعل من اختصاصه ابلاغ الاوامر السلطانية لرجال الحكومة والشعب ومراقبة تنفيذها وأقام في القاهرة والمراكز الرئيسية من القطر المصري ست فرق عسكريه تسمى بالوجاقات تحت قيادة وأوامر خير الدين أحد قواد العثمانيين العظماء الذي كان بالقلعة وجعل لضباط هذه الفرق حق المصادقة على أوامر الباشا ومناقشته الحساب فيها وطلب عزله اذا اشتبهوا في أمره وعين لكل قسم من أقسام القطر الاثنى عشر حاكما يقال له سنجق أو بك من أمراء المماليك القدماء فكان هذا النظام داعياً الى التوازن وقاضياً على استبداد فريق بالامر دون فريق

١٥٢٠ — ١٥٦٦ م وقد سار السلطان سليمان على هذا النظام وزاد عليه فرقة من بقية دولة المماليك أنشأها ودعاها وجاق الشراكسة وأنشأ ديواناً جعل ضمن أعضائه أعيان المشايخ والاشراف والمفتين الاربعة والأئمة والعلماء وكان لفرقة الانكشارية الامتياز على سائر الفرق وقائدها مفضلا على سائر القواد وله نفوذ عليهم وجعل قبودانات (رؤساء بحريين) على ثغور السويس ودمياط والاسكندرية يستدعون كل سنة ويعين بدلهم

وقد صرح السلطان سليمان بأنه المالك الحر لجميع أرض مصر وهو الذي يفرقها اقطاعات على أناس يدعون بالملتزمين ولكنها تورث فاذا مات الملتزم من غير عقب تعود الي السلطان ليعطيها لملتزم آخر وفرض عليهم في مقابلة ذلك خراجاً يؤدونه كل سنة أما نقداً وإما عيناً ولهم أن يؤجروا الارض لمن يشاءون من المزارعين فأزهق الملتزمون الفلاح بمالهم من السلطة عليه سداً لجشعهم ومسح الارض لضبط الخراج وجعلها أقساماً محدودة معلومة . تلك هى النظم الادارية والعسكرية والمالية التي أجراها السلطان سليمان بواسطة الولاة الذين أقامهم على مصر مدة حكمه وعددهم أربعة عشر نذكر منهم

١٥٢١ م أحمد باشا . الذي كان يطمع في الصدارة العظمى فلم ينلها وأرسل والياً على مصر فعد ذلك اهانة له وحطاً من شأنه وأعلن استقلاله وأمر أن يخطب له وتضرب النقود باسمه واستبد بالناس

وسأمهم خسفاً حتى ثاروا عليه وقتلوه وعلقوا رأسه على باب زويله

١٥٣٨ م داود باشا . كان رجلا كريم الاخلاق محباً للعلم والعلماء جمع من المؤلفات العربية عدداً وافراً واستنسخ كل ما ظفر به من الكتب غير المطبوعة وكان الاهلون مدة حكمه في بحبوحة من السعادة ورغد من العيش وقد طال حكمه ١١ سنة و ٨ ش

١٥٦٥ م وآخر من تولي مصر في عهد السلطان سليمان محمود باشا . وكان ظالماً عاتياً سلب كثيراً من الاموال وقتل كثيرا من الاعيان وكان لايمر في شوارع القاهرة الا ومعه رئيس الجلادين وللمحافظة على مركزه كان يرسل الهدايا الكثيرة الى السلطان والوزراء في الاستانة غير ان ذلك لم يفده شيئاً فقد قتل في الطريق وهو في موكبه ولم تقف الحكومة لقاتله على أثر

١٥٦٦ ـ ١٥٧٤ م وهي مدة حكم سليم بن سليمان الذي هدأت في مدته الاحوال بهمة سنان باشا حاكمها ونائبه اسكندر باشا الشركسي الذي ولي أمرها أثناء غياب الوالى المذكور في بلاد اليمن محارباً فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين وطلبة العلم

ولما عاد سنان باشا ظافرا بنى في بولاق جملة وكالات وجامعاً لايزال معروفا باسمه واقتفى أثره في ذلك حسين باشا غير ان كثرة حلمه أدت الى تكاثر اللصوص

١٥٧٤ — ١٥٩٤ م وهى سلطنة مراد بن سليم الثانى ولى الحكم على مصر فيمدته (مسيح باشا) وبقي فيها خمس سنوات وخمسة أشهر ونصف شهر أبطل أثناءها السرقات وضرب على أيدي اللصوص وقتل منهم عدداً وافرا وأصلح شئون الرعية ومن آثاره مسجد عظيم في ظاهر القاهرة بالقرافة جعله على اسم الشيخ نور الدين القرافي

١٥٩١ م ثم ولي الحكم بعده خمسة ولاة خيرهم حافظ احمد باشا الملقب بالخادم فقد كان محباً للعلم وطلابه حسن الادارة رفيقاً بأهل البلاد بني في بولاق وكالتين وعدة قيسيريات وجملة منازل خصص ايرادها للاعمال الخيرية وطال حكمه ٤ سنوات

ثم تعاقب على مصر من ذلك العهد الى سنة ١٧٩٨ أي من سلطنة مراد بن سليم الى سلطنة سليم الثالث بن مصطفى جملة ولاة فلم يطل حكم واحد منهم ليؤثر عنه شيء يذكر فان معظمهم لم يعن الا بجمع الاموال واغتصاب ما بأيدى الناس وكثير منهم استبد بالرعية وارتكب من ضروب الظلم والاعتساف ما تقشعر منه الابدان وان كانت مصر في زمن هؤلاء الولاة في مأمن من الحروب الخارجيه بعيدة

عن مصائبها الا أن الاضطراب والخوف كانا ضاربين أطنابهما في انحائها من تمرد الجنود من وقت الى آخر أو مما كان يهبط عليها من القحط والطاعون اللذين كانا يحصدان الارواح حصداً حتى فقد الامن وعمت الفاقة كل الطبقات وتناول هذا الانحطاط العلوم والآداب وكثيراً من الصناعات والفنون خصوصاً فن العمارة فان ما تزدان به القاهرة الآن من المباني الضخمة دليل على ما كانت عليه من التقدم والارتقاء في عهد المماليك وليس للعثمانيين يد فيها ومع ذلك يجدر بنا أن نذكر السيد محمد باشا الشريف فانه كان مهيباً عالماً قامت في أيامه ثورة كبيرة كاد يقتل فيها ولكنه تمكن من اخمادها ورمم أروقة الجامع الازهر وأحسن الى طلبة العلم الفقراء وكان ذلك في سنة ١٥٩٥

ثم أخذت سلطة الولاة في التقلص شيئاً فشيئاً حتى انتقلت الى شيخ البلد وهو موظف مختار من بين السناجق حكام الاقاليم وبذلك عادت السلطة في مصر الى المماليك القدماء وتنافس منهم شركسيان في النفوذ والسلطة وهما قاسم بك وذو الفقار بك وكون كل منهما حزباً يناوىء الآخر في اطماعه الكثيرة وقامت بين الفريقين معارك دامت نحو نصف قرن تقريباً

١٧١١ م اشتعلت في هذه السنة نيران الحروب الاهلية بين الحزبين واستعر لهيبها مدة ٩٠ يوما حصلت أثناءها جملة مواقع داخل القاهرة وظاهرها وكانت نتيجتها أن ظفر حزب القاسمية رغما من موت رئيسه عيواظ بك بحزب الفقارية وطرد الوالى خليل باشا من القلعة وقتل جملة رؤساء من أخصامه ثم جعل ذلك الحزب اسماعيل بك بن عيواظ بك شيخا للبلد فأقام ست عشرة سنة وبيده جل السلطة ثم مات قتيلا من يد أحد المماليك الفقارية وسط الديوان وأعقب موته دور من الفوضى تنازع فيها المماليك الرئاسة على القطر المصري فكان شيخ البلد يعزل أو يقتل قهراً أو غدراً حتى ظهر وسط هذا الاضطراب رجل وصل في زمن قريب لحدة ذكائه وقوة دهائه الى أسمى المراتب وسمى فيما بعد على بك الكبير وكان مملوكا لشيخ البلد ابراهيم كخيا الذي مات كسلفائه بيد ابراهيم بك الشركسي طمعا فى الحصول على مركزه الذي لم ينله وأخذه غيره ولما آلت الى خليل بك اجتهد في التخلص من علي بك لعلمه انه أشد أعدائه حزما وأحبهم الى سائر الناس فشرع يكيد له حتى ألجأه الى الفرار الى الصعيد حيث تمكن من الاتحاد مع بعض المماليك وعاد الي القاهرة على رأس جيش عظيم انتصر به على خليل بك وتولى منصب المشيخه

﴿ علي بك الـكبير ﴾

١٧٦٣ ـ ١٧٧٤ م وكانت باكورة أعماله أن قتل ابراهيم بك الشركسي انتقاما لسيده ولـكن قام ضده أخصام أشداء يعضدهم الباب العالى الذي داخله الريب من سرعة ارتقاء على بك واضطروه الى الخروج من مصر والالتجاء مرة الى الشام ومرة الى اليمن ولـكنه تمـكن من العودة الى القاهرة واسترجاع منصبه بمساعدة أحزابه ووطد مركزه بتسليم القيادة لنفر من ثقاته منهم محمد بك أبو الذهب وبتقليل جنود الاوقاجات والاكثار من المماليك المخلصين وقد برهن علي بك على جدارته واستحقاقه بحسن ادارته فقطع دابر اللصوص وأمن السبل وأقام العدل وخفف الضرائب وبينما هو يعمل لخير البلاد بجد واخلاص كان أقرب المقربين اليه محمد بك أبو الذهب ينصب له حبال الغدر والخيانة

ولما قامت الحرب بين الروسيا والدولة العلية سنة ١٧٦٨ كتب الباب العالى الى علي بك بتجهيز تجريدة من ١٢ الف مقاتل فانتهز أبو الذهب هذه الفرصة وأنفذ سراً الى السلطان مصطفى تقريراً اتهم فيه علي بك بعزمه على الانضمام بجيشه الى الاعداء ليتمكن فيما بعد من تحرير مصر والاستقلال فأنفذ الباب العالى أمراً الى والى مصر بقتل شيخ البلد فوقع ذلك الامر في يد علي بك فجمع حالا أعضاء الديوان وأطلعهم عليه وخطب فيهم خطبة حماسية وطنية

أما الفرق التي كانت أعدت امداداً للدولة العلية في حربها مع الروسيا فقد أنفذها على بك امداد الصديقة الامير ضاهر والى عكا الذي كان شهر العصيان ضد الدولة فانتصر ضاهر المذكور على والى دمشق العثمانى فاضطر الباب العالى لسبب حربه مع الروسيا الى ارجاء تأديب علي بك لوقت آخر فانتهز علي بك هذه الفرصة واستولى على مكة والمدينة وجمع السواحل العربية ثم أنفذ أبا الذهب على رأس جيش مركب من ثلاثين الف مقاتل الى الشام فملك أشهر مدن هذا الاقليم العظيم واستولى على دمشق غير انه لما رأى جميع قوى على بك تحت أمرته قادة الطمع والغدر والخيانة الى السير بها لمحاربة على بك بعد أن اتفق على ذلك مع الباب العالى فلم يسع علي بك وقد خانه صنيعته الا الانسحاب مع فرقة من مماليكه المخلصين الى صديقه وحليفه الشيخ ضاهر

ثم علم انفضاض بعض الفرق العسكرية من حول أبى الذهب وباستياء الناس من حكمه فجمع نفراً من الالبانيين وضمهم الى جنده وسار بهم الى مصر لاستردادها فلم يفلح فان اثنين من حزبه (ابراهيم بك ومراد بك) انضما الى الاعداد في واقعة الصالحية حيث قتل ابن الامير ضاهر مع

معظم رجاله وفر اتباع علي بعد الهزيمة وأبى هو اللحاق بهم وظل في فسطاطه الى أن داهمه الاعداء وقاومهم مقاومة اليائس ولم يظفروا به الا مثخناً بالجراح ومات بعد ذلك ببضعة أيام سنة ١٧٧٤

وكان علي بك عظيم الهيئة شديد الحذق ومن مآثره بناء المسجد الجامع بطنطا والقبة التي على ضريح السيد أحمد البدوي وتجديد قبة الامام الشافعي

ولم يتمتع أبو الذهب بعد هذا الانتصار فانه مات فجأة فى السنة التالية بعد استيلائه على مدينة عكا

﴿ اسماعيل بك وابراهيم بك ومراد بك ـ وحال مصر قبيل الحملة الفرنسية ﴾

ثم تنازع الحكم بعده اسماعيل بك، والخائنان ابراهيم ومراد وأفضى هذا التنازع الي هرب اسماعيل بك الى الاستانة وفوز الاخيرين فاستبدا بمصر عشرين سنة ذاق فيها الناس الامرين وتسمى ابراهيم بك بشيخ البلد ومراد بك بأمير الحج وكانا يتنازعان أحياناً فيما بينهما تنازعاً يؤدي الى بعض مناوشات وسرعان ما كانا يتفقان اذا هددا في سلطانهما ولا سيما ضد الوالى الذي انحصرت سلطته في قبض الجزية

ولما علم السلطان عبد الحميد الاول باستبدادهما في الرعية واستقلالهما بمالية البلاد عزم على وضع حد لهذه الفوضى فأرسل الى الديار المصرية جيشا تحت قيادة قبودان باشا حسن فانخلع لذلك قلب المماليك وهموا أولا بالمحابرات ثم عدلوا عنها الى المقاتلة فهاجم مراد بك جيش الترك وهو سائر الى الرحمانية ولكن قنابل الترك بددت شمل فرسانهم وألجأتهم على الفرار نحو الصعيد ودخل قبودان باشا حسن القاهرة سنة ١٧٨٦ بعد ان عبثت جنوده بكل ماصادفها في الطريق وانتقم من المماليك العصاة وأعاد مشيخة البلد الى اسماعيل بك ثم أمره الباب العالى بالرجوع لتوجيهه الى حرب أخرى مع الروسيا فلم تكن مدته في مصر كافية ليدعم اصلاحه فيها فقد عادت بعد سفره السلطة الغاشمه الى رؤساء المماليك سنة ١٧٩١

١٧٩١ م فى هذه السنة طرأ على البلاد ولا سيما القاهرة وباء شديد لم ير مثله من قبل فكان يموت به نحو الالف فى يوم واحد ووقع اسماعيل بك في مخالبه فاسترد السلطة ابراهيم بك ومراد بك وتغاليا في الظلم والاستبداد حتي ضج السكان وأظهروا استياءهم الشديد من هذه المعاملة فتركاهم يتنفسون وحولا النهب والسلب نحو التجار الاجانب خصوصا الفرنسويين فتذمرت

القناصل واحتجوا على ذلك وعلمت الحكومة الفرنسية بما تسامه رعيتها في مصر فقررت ارسال حملة اليها وكانت ترمي بها الى غرضين

(أولا) القضاء على استبداد المماليك (ثانياً) امتلاك قطر على الطريق الموصل الى الهند تهدد به انكلترا في اكبر مستعمرة لها والثاني هو المقصد الوحيد أما الاول فهو أمر ثانوى

الحملة الفرنسوية

« ١٧٩٨ — ١٨٠١ »

لما تخلص الفرنسيون من الحكم المطلق وقتلوا ملكهم لويس السادس عشر وأقاموا حكومة جمهورية اتفقت جملة ممالك من أوروبا وهى المانيا وانجلترا وأسبانيا وهولانده وسردانيا على هدم هذا النظام فجردت فرنسا على المتحاربين عدة جيوش وانتصرت عليهم فى مواقع كثيرة واستولت على بلجيكا وهولاندا ومدت حدودها في الشرق الى نهر الرين وملكت ايطالية الشمالية واستردت طولون من انكلترا ورغبت أخيراً في تهديد انجلترا في الهند فجردت حملتها على مصر بعد ان أقنعها نابليون بونابرت (ولد في جزيرة قرسقه سنة ١٧٦٩ وتوفى فى جزيرة سنتي هيلانة سنة ١٨٢١) أكبر أبطال الحروب قاطبة في القرون الحديثة بفائدة ذلك في مقال طويل وقررت انفاذ جيش من أربعين الف مقاتل تحت أمرته وفوضت له أمر انتخاب القواد فاختار كليبر ومينو وغيرهما وصحبهم فرقة من المهندسين وكثير من العلماء والصناع والمترجمين ومعهم مطبعة عربية . سار نابليون على رأس هذا الجيش ونزل به في الاسكندرية فاستولى عليها بعد مقاومة خفيفة وبعد ذلك زحف على القاهرة سائراً بمحاذاة الشاطيء الغربي لفرع رشيد فوصل بعد خمسة عشر يوماً الى انبابه وتقابل بالقرب من الجيزه مع مراد بك الذي كان معه جميع فرسان المماليك وفرق من الفلاحين المسلحين وكان بونابرت كون من جنده قوة عظيمة مقسمة خمسة أقسام تحميها فرق طوبجيه وفرق خيالة فأثنت عزيمة المماليك أمام هذه القوى الهائلة وأصلتهم القنابل ناراً حامية فرقتهم أيدي سبا تاركين في ميدان الحرب آلافاً من القتلى والجرحى

وبعد هذه الواقعة دخل القائد الفرنسي القاهرة وقد أخلاها الوالي بكير باشا منسحباً الي سوريا مع الوجاقات وسلم نابوليون ادارة المدينة الى مجلس من أعيان البلاد وكذلك فعل بالنسبة لادارة

الاقاليم فجعل لها مجلساً من أعيانها يلتئم في القاهرة . وبينما كان بونابرت يعمل لاستجلاب محبة الاهالي وارضائهم واحترام تقاليدهم ومعتقداتهم لنشر الوية العدل على ربوع البلاد بعدظلم المماليك واعتسافهم كان أحد القواد الفرنسيين ويزكس يتتبع مراد بك فطرده من الفيوم وتأثره الى الوجه القبلي واشتبك معه في موقعة حاسمة عند الاقصر

وفي تلك الاثناء انتصر بونابرت على ابراهيم بك عند الصالحية فاضطر الى التقهقر الى صحراء العريش وماكاد يفرح بهذا النصر المبين حتي دهمه خبر تكسير الاسطول الفرنسي في خليج أبي قير سنة ١٧٩٨ فقد فاجأه نلسون بأسطول انجليزي عظيم وحاصره في مكانه وأغرق بعض السفن وأحرق البعض الآخر ولم ينج منه الا القليل فانخلع قلب نابوليون فزعاً لانقطاع المواصلات بينه وبين فرنسا ولكنه بدلا من أن يلقي نفسه في هاوية اليأس ضاعف همته في تحسين ادارة البلاد حتي يستمد منها ماكان ينتظره من الخارج

وفي أثناء ذلك قامت ثورة في القاهرة أثار غبارها أنصار المماليك فكبح بسرعة جماح الثائرين وعاقب الزعماء منهم حسب القوانين الحربية

وفي شهر فبراير من سنة ١٧٩٩ سار بونابرت لفتح البلاد الشامية واستولى على مدينة يافا عنوة وحاصر قلعة عكا وكان متحصناً بها أحمد باشا الجزار أحد مماليك علي بك الكبير والمشهور بالشجاعة والقوة وكان بهذه القلعة حامية كبيرة يأتيها الامداد من جهة البحر فقاومت المحاصرين مقاومة شديدة ثم أتتها نجدات من دمشق وفلسطين فهزمها بونابرت في واقعة جبل « تابور » وبقي محاصراً لعكا زمناً طويلا ثم فارقها لاستعصائها عليه وعاد بجيشه الى مصر وما كاد يصل الى القاهرة حتى علم بوصول جيش تركي عظيم الى أبي قير فسار من فوره الى الاسكندرية على رأس ستة آلاف من الجند وانتصر في بضعة أيام على الترك وأبادهم جميعاً

ثم استدعى بونابرت الى فرنسا لانقاذها مما يتهددها فسافر من مصر بعد أن سلم قيادة الجيش العامة الى كليبر أحد قواده فعرف هذا القائد كيف يسير سيرة طيبة ليحوز ثقة المصريين ومحبتهم ثم رأى استحالة بقاء الفرنسيين في مصر فشرع يخابر الصدر الاعظم يوسف باشا الذي كان يجهز حملة عظيمة من الشام ليرسلها الى مصر

وكانت نتيجة هذه المخابرات أن عقدت محالفة بين الطرفين تقضي بأن يخلي الفرنسيون القطر

في ثلاثة أشهر من تاريخها وأن ينقل جيشهم على سفن تقدمها لهم تركيا غير ان مندوبي الحكومة الانجليزية فى تركيا لم يوافقوا على ذلك الاتفاق وأوقفوا العمل به فعادت الحال الى ما كانت عليه من العداء وتقابل كليبر مع الجيش العثماني بقرب المطرية وكانت الفرق التركيه كثيرة ولكنها غير منظمة فدارت عليها الدائرة وولت هاربة من ميدان القتال وتأثرتها الجنود الفرنسية وكانت عشرة آلاف حتى أوصلتها الى حدود الصحراء وفي أثناء ذلك كانت احدى الفرق التركية قد أتبعت في سيرها النيل حتى وصلت الى أبواب القاهرة وحينئذ ظن المصريون ان الجيش الفرنسى هزم شر هزيمة وهلك جميعه فثاروا على الحامية الفرنسية التي اضطرت أن تحتمي بالقلعة وشرعوا ينهبون المسيحيين حتى الوطنيين منهم ويقتلونهم

ولما عاد كليبر حاصر المدينة واضطرها الى التسليم وبدلا من أن يعتدي على السكان كما فعلوا بالفرنسيين والمسيحيين ضرب عليهم ضريبة فادحة

وفي سنة ١٨٠٠ هجم على كليبر رجل شامي اسمه سليمان الحلبي وطعنه بخنجر جملة طعنات في صدره تركه بعدها قتيلا فتولى القيادة (مينو)

وفي سنة ١٨٠١ داهم مصر جيش عثماني من سوريا وعمارة انجليزية في أبي قيروجيش من الهند الي القصير فقنا فلم يقو مينو على ملاقاة هذه الجيوش واضطر الي تسليم المدينة ونقل الجيش الفرنسي وعدده ٢٤ ألفاً بسلاحه وأثاثه الى فرنسا على سفن حربية انجليزية

﴿ حالة مصر بعد انجلاء الفرنسيين عنها ﴾

لما انجلى الفرنسيون عن مصر أصبح هذا القطر مركزاً تحوم حوله مطامع الانجليز والاتراك والمماليك دون أن يصيب فريق منهم غاية

فالانجليز كانت جنودهم بدرجة من القلة لا تؤذن لهم بتأييد مطامعهم

والاتراك كانوا غير واثقين من اخلاص عساكرهم الارناءود

والمماليك كان التدابر والتنافر مستحكمين بين زعمائهم ومصر كانت لا تدخ بنفسها في حزب من تلك الاحزاب المتباينة فيكون لها الرجحان حتى أتاح الله لها المغفور له

﴿ محمد علي باشا رأس الاسرة المحمدية العلويه ﴾

فأباد تلك العناصر المختلفة وأقام صروح دولته على انقاض دولهم

ولد محمد علي في قوله من أعمال مقدونيا سنة ١٧٦٩ وكان والده يسمى ابراهيم أغا من ضباط تلك المدينة ولما توفي والده كان سنه لا يتجاوز أربع سنوات وكفله عمه ثم مات بعد ذلك بمدة يسيرة فكفله محافظ المدينة وعنى بتربيته فشب على حب استعمال السلاح وتزوج وهو في الثامنةعشرة من عمره باحدى قريبات المحافظ وكانت ذات يسار فكان ذلك مبدأ ثروته ونجح فيها خصوصاً تجارة التبغ

وفي سنة ١٨٠١ أرسله محافظ المدينة على رأس ٢٠٠ جندياً مع الاسطول التركى الذي أقلع الى مصر فتلقى الى رتبة البكباشي ودخل في خدمة محمد خسرو باشا والى مصر ولم يزل يترقي بكفاءته الى أن صار أمير لواء وأحبه الجند نخاف منه خسرو باشا ورغب في الفتك به ولكن من حسن حظ محمد علي أن قام العسكرعلى الوالى لتأخر مرتباتهم واضطروه الى الفرار الى دمياط وتولى مكانه رئيسهم طاهر باشا الذي رأى من الصعوبات المالية ما كان سبب قتله ورغب الانكشارية في تولية أحمد باشا والي (جده) وكان قد أتى مصر ليسافر منها الى مأموريته وتمكن من الاستيلاء على قلعة الجبل الا ان محمد علي تحالف مع البرديسي أحد زعماء المماليك وأخرجاه من القلعة ثم اتفقا على محاربة خسرو باشا وأسره حتى يستخلصا مصر لانفسهما فسار البرديسي الى دمياط وحاربه وأسره

وفي خلال ذلك عاد من انجلترا محمد الالفي الرئيس الثاني للماليك وكان قد ذهب اليها يطلب المساعدة . ولما وصل الى الجيزة أحاط بة الالبانيون من جند محمد علي وشتتوا من كانوا يستقبلونه من الجند وغيرهم وأخذوا ما كان معه من النفائس ولم يتمكن من الفرار الا بشق الانفس وقد احتجت انجلترا على هذا العمل فلم يجد احتجاجها شيئاً وأصبح محمد على والبرديسي صاحبي السيادة على مصر

لم يشأ محمد علي بعد ذلك أن يكون له المظهر الاول بل ترك مقاليد الامر للبرديسي وطلب الالبانيون منه مرتبات الثمانية الاشهر المتأخرة بعد أن هددوه بالثورة فاضطر الي تقرير ضريبة فادحة على أهل البلاد فامتنعوا عن أدائها وأظهروا تمنعاً شديداً فما كان من محمدعلى الا انه ألغى تلك الضريبة فانحازوا اليه واتحدوا مع القوة العسكرية على محاصرة البرديسي الذي بذل جهد المستطاع فى النجاة بحياته وشخص نحو الصحراء

علم الباب العالي بهذة الحوادث فقرر اعادة الالبانيين وأنفذ اليهم ثلاثة آلاف من الاكراد

لاكراههم على العودة فثار الجند والمصريون واجتمع أعيان البلاد ونصبوا محمد عليا قلادة الحكم وبعثوا بذلك الى دار السعادة فصادقهم السلطان عليه في صفر سنة ١٢٢٠ هجرية الموافق ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ فأغضب ذلك انكلترا التي كانت تريد أن تتخلص من محمد علي وتؤيد الالفى ليتنازل لها عن سواحل مصر على البحر الابيض المتوسط وعن مياه الاسكندرية وحسنت للدولة العلية عزل محمد علي فأقلع من الاستانة أسطول مزود بالاوامر الصريحة لمحمد علي أن يتخلى عن مصر مقابل سلانيك فمنعه جنوده الالبانيون وكتب العلماء والوجوه والاعيان وأمراء الجند في مصر كتاباً الى الدولة العلية يطلبون فيه ابقاء محمد علي وعلى ذلك أصدر السلطان سليم الثالث فرماناً ببقائه في الولاية

وفي أثناء ذلك توفي زعيما المماليك البرديسي والالفى فتخلص محمد علي من المماليك والاتراك معاً ولكنه لم يلبث ان بلغه تأهب الانجليز لاحتلال مصر ثانياً . وسبب ذلك اتحاد فرنسا مع الدولة العلية وقت ماكان جنود نابوليون تتوغل في شرق بروسيا على مقربة من الحدود الروسية واعلان الروسيا الحرب على الاتراك بعد اتفاقها مع انجلترا التي أدخلت أسطولها في الدردنيل ثم انسحبت منه بعد ان أصاب مراكبها من القلاع العثمانية خسائر جسيمة فوجهتها الي الاسكندرية لاحتلالها وقد احتلتها فعلا في ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ وقصد الانكليز رشيداً للاستيلاء عليها ولكن جنود محمد علي ردتهم عنها مدحورين فتحصنوا بالاسكندرية وتأخر عنهم المدد فخابروا محمد علي في الصلح على اخلاء البلاد وأقلعت بهم سفنهم في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧

ولكي يصفو له الجو تماماً رغب في التخلص من البقية الباقية من المماليك فانتهز فرصة تقليد ولده طوسون القيادة على حملة الوهابيين وأعد وليمة في القلعة دعا اليها المماليك فلما اجتمعوا أمر بابادتهم جميعاً فلم ينج منهم أحد ولم يبق له بعد ذلك في مصر منافس ولا منازع

﴿ أعمال محمد علي في مصر ﴾

بعد أن تخلص محمد علي من منافسيه ومن الانجليز شرع في تنظيم الاحوال فسن القوانين المعتدلة ورتب الضرائب واصلح الحصون والقلاع بالسواحل المصرية وعمل على زيادة ثروة القطر وانماء خيراته فأنشأ ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني وبدأ في تشييد القناطر الخيرية سنة ١٨٢٧

حسب التصميم الذي وضعه مسيو موجيل المهندس الفرنسي ثم أنشأ نظارة المعارف العمومية والمدارس التجهيزية وأنفذ الى باريس سنة ١٨٢٦ ارسالية مصرية مؤلفة من ٤٠ طالباً

وفي سنة ١٨١٥ حشد الجنود من المصريين وأقام على تعليمهم الضابط سيف الفرنسي الذى اعتنق الاسلام فيما بعد وسمي سليمان باشا وقد بلغ عدد الجيش ٩٠ الفاً سنة ١٨٢٩ . أما البحرية فكانت مكونة من أسطول في البحر الاحمر وأسطول في البحر الابيض المتوسط دمرت سفنه فى واقعة . نفارينو . فأنشأ أسطولا آخر

﴿ سياسة محمد على الخارجية ﴾

الحرب مع الوهابيين ١٨٢٠ — ١٨٢٢

ظهر ببلاد العرب رجل اسمه محمد بن عبد الوهاب دعا الناس الى تطهير الدين من شوائب البدع فعظم شأنه ثم مات وقام بالامر بعده سعود أحد كبار مشايخ العرب واستولى على مكة والمدينة وتعطل الحج سنة ١٨٠٦ فطلب السلطان من محمد على أن يقوم بأمر تأديبه فأنفذ الى الوهابيين ثمانية آلاف من الالبانيين تحت قيادة ولده طوسون الذي لم يتمكن من الدخول في مكة والمدينة الا سنة ١٨١٣ غير أن الوهابيين ظلوا أقوياء داخل بلاد العرب فلم يتمكن محمد علي من القضاء عليهم الا سنة ١٨١٨ قضي عليهم ابنه ابراهيم وقبض على عبد الله بن سعود زعيمهم و بعث به الى الاستانة حيث اعدم في ميدان جامع أيا صوفيا

(فتح السودان ١٨٢٠ — ١٨٢٢)

كان السودان في حالة من الفوضى تمكن محمد على معها من الاستيلاء عليه بعد ثمانية عشر شهرا فانه أنفذ اليه جيشين لايزيد عدد عسكر كل منهما عن أربعة آلاف وكان أحدهما بقيادة ابنه اسماعيل باشا(١)والثاني بقيادة محمد بك الدفتردار وقد سارا معاً يفتحان ما علي النيل من البلدان حتي وصلا الى الدبة ثم افترقا فقصد اسماعيل الشرق والدفتردار الغرب و بعد ان احتل اسماعيل سنار عاد الى شندي وهناك وقع في أحبولة الاهلين اذ أحاطوا منزله بالهشيم واوقدوا فيه النار وعلم بذلك الدفتردار فعاد من كردفان بعد ان فتحها فانتقم لاسماعيل انتقاماً شديدا

وفي أثناء تلك الفتوح أنشيء معسكر الخرطوم وأنشئت مدينة كسلا وتنازلت الدولة لمصر عن ثغري مصوع وسواكن ثم توالت البعثات العلمية للبحث في أحوال السودان وعن منابيع النيل

(حرب استقلال اليونان)

١٨٢٢ — ١٨٣٤

ما كاد يتم فتح السودان حتي استدعت الدولة العلية محمداً عليا لاخماد ثورة كريد مقابل ولايته عليها فسار الاسطول المصري اليها وأنزل الجنود بها فى رابع ابريل سنة ١٨٢٣

وفي سنة ١٨٢٤ تلقى محمد على أوامر سلطانية بفتح شبه جزيرة موره فأنفذ اليها جيشاً بقيادة ابنه ابراهيم

---

(١) هو ابن محمد على قتله ملك سنار المسمى نمر

مركبا من ثلاثة عشر الفا بين راجل وفارس نزلها في السنة التالية وأخضعها وتتبع الثائرين فيها فهال أوروبا «انجلترا وفرنسا وروسيا» هذا الامر فأحرقت الاسطول العثماني المصرى «في نغارينو» وانقطعت المواصلات بين ابراهيم باشا ومصر واخيرا اضطر الى الجلاء عن موره سنة ١٨٢٨ وعقد اتفاقية بذلك بين حكومة مصر وأمراء البحر الاوروبيين

(فتح الشام ١٨٣١ — ١٨٣٤)

اختلفت الاقوال في سبب الحروب الشامية فقيل ان فرنسا هي التى حرضت محمد على على فتح الشام لتوسيع ملكه من الجهة الاسيوية حتي تشتغل الدولة العلية بما يمنعها من التداخل في شؤون بلاد الجزائر التي كانت احتلتها فرنسا سنة ١٨٣٠ وقيل ان السلطان محمودا كان وعد محمد علي الشام اذا هو اطفأ ثورة موره ولم يف له بها وقيل غير ذلك

نتيجة الاقوال جميعها ان العلائق بين محمد على والباب العالى كانت في فتور جر الى زحف الجيوش المصروية تحت امرة ابنه ابراهيم باشا الذى هاجم عكا وحاصرها ستة أشهر حتى استولى عليها ثم سافر منها الى دمشق فأخذها بدون مقاومة واستمر نحو الشمال والتقي في حمص بجزء من الجيش العثمانى فسحقه واحتل حلبا ثم أغار على آسيا الصغرى حتي وصل الى قنيه والتقي بجيش الدولة فانتصر عليه واسر قائده رشيد باشا وكانت قوة ابراهيم في تلك الواقعة ثلاثين الف مقاتل وقوة خصمه ستين الفا

وفي فبراير سنة ١٨٣٣ تسلم ثغر أزمير وزحف علي كوتاهيه في طريق الاستانة فهال الامر الدول الاوربية اللاتى نصحت للباب العالي أن ينزل لمحمد عن الشام كلها وعن أطنه وعقد بذلك معاهدة كوتاهيه في السنة المذكورة فاجتمع له بلاد مصر والشام والحجاز وجزيرة كريد والسودان غير ان الدولة شرعت في حث الشاميين على شق عصا الطاعة على مصر حتى اشتعلت نيران الفتنة التى لم يخمدها ابراهيم الا بعد عناء كبير

وفي تلك الاثناء كان محمد علي يكرر الطلب من الدولة بأن تجعل ولايات مصر والشام والحجاز لاولاده فلم يجبه السلطان محمود الي طلبه فقام بينهما خلاف أدي الى التحام الجيش المصرى بالجيش العثمانى في نصيبين حيث انتصر ابراهيم ايضا

بعد هذه الواقعة بستة أيام هلك السلطان محمود وولى الملك بعده السلطان عبد المجيد خان وكانت المخابرات فى المسألة المصرية جارية بين الدول وتم الاتفاق أخيرا على جعل ولاية مصر وراثية في أسرة محمد علي وأصدر السلطان الخطين الشريفين المؤرخين في ثالث عشر فبراير سنة ١٨٤٠ وأول يونيه سنة ١٨٤١ مبينا فيهما علائق مصر السياسية بالدوله العلية ومقدار الجزية السنوية وان يخفض الجيش الى ثمانية عشر الفا

وظلت العلائق من هذا التاريخ الى وفاة محمد علي على أحسن مارام بينه وبين أوروبا ثم مرض محمد علي وتولى مكانه ابنه ابراهيم سنة ١٨٤٨ ولكنه توفي في السنة نفسها فولى الامر بعده عباس بن طوسون بن محمد علي وفي عهده توفي محمد على في أغسطس سنة ١٨٤٩

﴿عباس الاول﴾

١٨٤٩ — ١٨٥٤

قبض عباس باشا على زمام الولاية المصرية والامور ممهدة والنظم موطدة والامن مستتب فصرف عنايته فى تسهيل طرق التجارة و بناء الاستحكامات والقلاع والمبانى الفاخرة والقصور الضخمة والثكنات العسكرية غير انه لم يمض على ولايته الا قليل زمن ودبت عقارب الفتن بينه و بين الامراء من أقاربه فأبعد منهم عن مصر كل من اشتبه في أمره

وكان من اول أعماله أن أغلق اكثر المدارس التي أقامها جده ولم يبق غير اربعة عشرة مدرسة ثم انتقى من بين طلبتها خيرتهم وأدخلهم المدرسة الحربية التى سماها بالمفروزة وجعلها بالعباسية وعنى بها كثيرا فنجحت نجاحًا باهرا ثم أصابها الاهمال كما أصاب غيرها فانه للاقتصاد من المصروفات ابطل الورش والمعامل وخلى سبيل كثير من المعلمين الاوروبيين

وفى عهده مدت شركة انكليزية خطًا حديديا بين مصر والاسكندرية واشتغل في اقامة جسور الطريق المذكور العساكر البحرية ولذلك تعطلت السفن عن الحركة ووقفت الاعمال في دور الصناعة

(مساعدة مصر للدولة العلية في حرب القرم سنة ١٨٥٤)

لما اشتعلت نار الحرب بين الروسيا والدوله العلية اصدر السلطان عبد المجيد امرا الى عباس باشا الاول بارسال نجدة للجيوش العثمانية فتجهزت الاساطيل بسرعة وانفذ عليها عشرين الف مقاتل الى الاستانة فسيروا الى حدود الروملي وهناك شيد المصريون الحصن الشهير المسمى بطابية العرب وهى التى أمكن بها صد هجوم الروس سنة ١٨٥٤

وفي ١٨٥٠ وردت الى عباس باشا الاوامر من الباب العالى بالغاء السخرة والضرب بالكرباج والخدمة العسكرية لمدة طويلة فعارض اولا ثم أطاع ونفذ ما أمر به

وفى ١٨٥٤ وردت اخبار وفاته في بنها على أثر اصابة شديدة بالنقطة ولكن ثبت بعد انه مات قتيلا بين ثنين من الشراكسة انتقاما او خوفا من عقاب

﴿محمد سعيد باشا﴾

١٨٥٤ ـ ١٨٦٣

ارتقى محمد سعيد باشا الاريكة المصرية وحروب القرم قائمة على قدم وساق فأرسل نجدة مصرية أخرى أبلت في الحرب المذكورة بلاء حسنًا فانتصرت مع الفرنسيين والانجليز والترك انتصارا باهرا على الروس في ثغر سباستبول وتخابرت الدول بعده في الصلح وعقدت مؤتمرا في باريس تقرر فيه عدم مس استقلال تركيا في داخليتها وخارجيتها في ٢٠ مارس سنة ١٨٥٦

﴿ الاصلاحات في عهد محمد سعيد باشا ﴾

جعل للمعاشات نظاماً حسناً تشجيعا للموظفين وحثالهم على النشاط والصدق في العمل وأصلح ترعة المحمودية وأنشأ خطا حديديا بين القاهرة والسويس و بنى القلعه السعيديه على رأس الدلتا وجعل لها حصونا واستحكامات عظيمه تمتد من شاطيء فرع دمياط الى شاطيء فرع رشيد وخفض الضرائب في السودان ومنع الاتجار بالرقيق وطارد النخاسين وشجع البعثات العلمية في ارجاء السودان القاصية وأشهر هذه البعثات بعثة السير صمويل بيكر والقبطان سبيك والمستر غرانت فانها وصلت الى بحيرة البرت ثم الي بحيرة فكتوريا

ولما عاد هؤلاء السائحون الى مصر كان قد توفى سعيد باشا وجلس مكانه اسماعيل باشا

(المدارس والبحريه والعسكريه في عهد سعيد باشا)

لما ولى سعيد باشا الحكم كان في القطر المصرى أربع مدارس كبيرة فقط فلم يتدارك هذا النقص بل ألغى ديوان المدارس ومدرسة المفروزه وفتح مدرسة للحربية في قلعة القاهرة

ولما كان متخرجا من مدرسة البحرية كان يميل بطبعه الى تعزيز القوه البحريه فأحيا مدرستها بعد العدم وأمر باصلاح السفن القديمة وانشاء سفن جديده ولكن السلطان أصدر أمره بابطال هذه الاعمال فكان في ذلك ضياع القوة البحرية المصرية لان سعيد باشا رأى عدم الفائده في بقاء السفن بغير اصلاح فأمر بتكسيرها و بيع أخشابها ولكنه ابتاع بعد ذلك أربع بواخر جديدة حديديه جعلها للبحر الاحمر كما جعل مثلها للبحر الابيض وعهد الى شركة فرنسية انشاء حوض كبير في السويس لاصلاح ما بها من السفن المصرية وشرع في عمله ولكنه لم يتم الا في عهد المرحوم اسماعيل باشا

وكان من أوضح صفات سعيد باشا ميله الشديد للعسكرية والعناية بها وكان لا يقر له قرار الا مع عساكره وكان يعرض عليه أكثر ما يتعلق بشؤون البلاد وهو بينهم

وكان كثير التنقل بهم من مصر الى الاسكندريه الى مريوط وقصر النيل والقلعه السعيديه غيرانه كان يزيد في عدد الجيش أو ينقص منه حسب هوائه

﴿ قناة السويس ﴾

(في عهد سعيد باشا)

لما تولى سعيد باشا خاطبه المسيو فرديناند دلسبس قنصل فرنسا في أمر القناة وكانت له الثقة به من قبل ورغبه في انشائه لما يعود على البلاد في الفوائد فأجاب طلبه ومنح الشركة التى ألفها القنصل المذكور التزام ذلك العمل الخطير (٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤) وعقدت الشروط بين الطرفين فى ٥ يناير سنة ١٨٥٦ وأصدرت الشركة أسهما قيمتها مائتا مليون فرنك ابتاع منها سعيد باشا ١٧٦٦٠٢ من الاسهم وشرع فى العمل سنة ١٨٥٩ على الرغم من توقف الدولة العلية عن التصديق على هذا المشروع ومن سعي انجلترا في عرقلته ولكن الاميال تحولت مع

الزمن نحو دلسبس و وافق الجميع على حفر القناة وسار العمل علي محور النظام الى أن توفي سعيد باشا سنة ١٨٦٣

﴿ اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ﴾

١٨٦٣ — ١٨٧٩

كان مولد اسماعيل باشا عليه رحمة الله فى أوائل شهر ديسمبر سنة ١٨٣٠ وتربا تربية حسنة في مدارس فرنسا مدة سبع سنين تعلم في أثنائها الفرنسية والرياضيات والطبعيات وكان قد سبق له تعلم التركية والفارسية والعربيـة وتقلب مدة سلفه في ادارة الحكومة المصرية فكان رئيسا لمجلس الاحكام ولما جلس على أريكة الملك صرف قصارى الهمة في توسيع نطاق التجارة والزراعة والصناعة وشق الترع وعمل الطرق الحديدية ومد الاسلاك التلغرافية حتى أوصلها الى بلاد السودان وأجرى المياه العذبة فى شوارع القاهرة وثغر الاسكندرية فى أنابيب حديدية على يد شركات أجنبية وأضاء شوارعها بالانوار الغاريه و وسع معامل السكر وأسس مصانع الورق ببولاق وأدخل كثيرا من الاصلاحات في المطبعة الاميرية وترجمت في أيامه الكتب العديدة من اللغات الافرنجية الى اللغة العربية وأنشأ المكتبة السلطانية وجمع فيها أشهر المؤلفات وعنى بدار التحف وعين لادارتها مريت بك سنة ١٨٦٣

وفي السنة الاولى من حكه زار مصر المرحوم السلطان عبد العزيز خان وأقام بالقاهرة سبعة أيام وعند عودته قدم له اسماعيل باشا سفينة عظيمة لتكون له يختا خصوصيا

(المعارف في عهد اسماعيل باشا)

كان بمصر حين ولي الحكم اسماعيل باشا ثلاث مدارس فقط فأبلغ عددها ٤٣ خلاف المدارس الحربية

﴿ البحريه ـ وابورات البوستة الخديوية ـ مصلحة البريد ﴾

اهتم اسماعيل باشا من أول جلوسه باعلاء شأن الصناعة فأعاد مصانعها ومعاملها وجدد كثيرا من الآلات والمسابك وأوصى انجلترا وفرنسا ببعض سفن حربية وأنشأ مدرسة للبحريه نبغ فيها رجال استخدمتهم الحكومة فى بواخرها و بعد حفر قناة السويس أنشأ أربع منارات على سواحل البحر الابيض المتوسط وزاد منارات على سواحل البحر الاحمر و بنى ميناء السويس وأصلح ميناء الاسكندرية ولتسهيل المواصلات الخارجية أمر بانشاء مصلحة وابورات البوستة الخديوية وخصص لها سبع بواخر أربع في البحر الاحمر وثلاث فى البحر الابيض تترد جيعها على أهم ثغور الدولة و بلاد اليونان ثم بلغت سفن البحر الابيض ١٦ سفينة وسفن البحر الاحمر ٩ فقط

وفي سنة ١٨٦٥ تأسست ادارة البوستة (أي البريد) في مصر فزادت أهمية بواخر البوستة الخديوية بحملها المراسلات من الديار المصرية الي الغرض التي تمر عليها

﴿سياسة اسماعيل باشا الخارجية﴾

مساعدته للدولة : ـ لبى اسماعيل باشا مساعدة الدولة وساعدها في أطفاء ثورة العسير وثورة كريد التي كانت اشتعلت نيرانها بسبب الدسائس اليونانية وتحريضات الدول الاوربية وفي حربها مع الصرب وقد أظهرت الجنود المصرية من الشجاعة والاقدام في هذه الحروب ماعاد عليهم بالمجد والفخار

وفي عهد السلطان عبد الحميد خان الثانى اشتعلت الحرب بين الدوله وروسيا لسبب المذابح البلغارية فاشترك فيها المصريون وأبلوا بلاء حسنا الى أن تم الصلح بين الدولتين

(مساعدته للانجليز في حرب الحبشة) كان لانجلترا قنصل في بلاد الحبشة توصل لمآرب دولته الى الاندماج في سلك خدمة النجاشي الخصوصيين ثم قامت ثورة داخلية قتل فيها ذلك القنصل واحتجت انجلترا على قتله وأرسلت جيشا عظيما الى الحبشة وأمر الخديو محافظ مصوع بمساعدة الجيش البريطانى في كل ما يحتاج اليه فصار ينقل اليه الاقوات من السويس حتى انتصر الانجليز على الاحباش ولكنهم خافوا شر البقاء في تلك البلاد فانسحبوا منها

السودان والاقاليم الاستوائية . رغب الباشا في توسيع دائرة أملاكه في السودان فالحق بلاد النيل الاعلى وعين غردون باشا مدير الاقاليم خط الاستواء وامتد نفوذ مصر على أوغندا وفتح أقليمي دارفور وبحر الغزال والاراضي المجاورة للحبشة ثم تقلد غردون حكمدارية السودان وبقى كذلك الي أن قتله المهديون في عهد المرحوم توفيق باشا

﴿ أميال اسماعيل باشا السياسية ﴾

كان اسماعيل باشا يميل الى الحصول على امتيازاته يعلو بها على من سبقه من الولاة ويقرب بها الى الاستقلال التام ويحصر ملك مصر في ذريته من بعده وقد نجح في ذلك بفضل ما بذله من النقود الوافرة وما قدمه من الهدايا النفيسة لرجال الدولة وأصحاب الحل والعقد في أوربا فصدر له فرمان سنة ١٨٦٧ بحصر حكومة مصر في ذريته وفرمان آخر بعد شهر واحد من صدور الفرمان الاول بتوارث الحكومة المصرية وثالث فى السنة التالية يخول له الاستقلال في الادارة الداخلية ورابع في السنة نفسها بمنح لقب خديوي ثم طلب اسماعيل باشا من الباب العالى أن يكون لمصر سفراء فى عواصم الممالك الاجنبية فظهرت مقاصده ورفض طلبه فغضب لذلك غضبا شديدا كاد يفضى الى اشتعال نار الحرب بين التابع والمتبوع وكان فى ذلك الحين يستعد للاحتفال بفتح قناة السويس

تأسيس

مجلس الشورى والمحاكم المختلطة

أسس اسماعيل باشا مجلس الشورى وافتتحه بنفسه سنة ١٨٦٧ وجعل أعضاءه من أعيان البلاد وكانت جميع القضايا بين المصريين والاجانب فى زمن المرحوم محمد علي باشا تنظر فى المحاكم الشرعية والاداريه كما كانت الحال في الممالك العثمانية

ولما كثر التجار الاجانب كان ينظر في القضايا التجارية مجلس مختلط نصفه من المصريين والنصف الآخر من الاجانب ثم شرع القناصل يتداخلون فى القضايا التي تقع بين رعاياهم والمصريين بغير أن يحصل اعتراض ما من أصحاب الشأن فى الحكومة المصرية وزادهذا التداخل الى حكم اسماعيل فأقنع الدول بضرورة المصادقة على تشكيل المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٦ فصار المتقاضون من أجانب و وطنيين يترافعون أمامها فى القضايا المدنية

قناة السويس في عهد اسماعيل باشا

كان سعيد باشا تعهد للشركة أن يسخر لها عشرين ألفا من المصريين فاعترضت الدولة على ذلك فقام خلاف بين الشركة ومصر أدى الى تحكيم نابليون الثالث صديق اسماعيل باشا في هذه المسألة فحكم على الحكومة المصرية أن تدفع للشركة ٨٤ مليونا من الفرنكات في مقابل العمال والارض التي كانت منحت للشركة لزراعتها والترعة الحلوة وغير ذلك ودأب دلسبس على تذليل الصعاب التي اعترضته وانتهي الامر للباب العالى الى منح الترخيص الرسمى بحفر القناة وسارت الاعمال من ذلك الحين في طريق التقدم والنجاح حتى احتفل بفتح القناة رسميا سنة ١٨٦٩ احتفالا شائقا لم يرمثله من قبل حتى وضعه الاوروبيون بأوصاف من الابهة والبذخ يتعذر على القاريء التصديق بها

الادارة المالية والقروض

وأزمة سنة ١٨٧٦

بلغت ديون مصر في عهد سعيد باشا ٢٥٠ مليونا من الفرنكات فبلغت في عهد اسماعيل باشا نيفا وتسعين مليونا من الجنيهات بفائدة ٧ ونصف في المائة ثم اضطر الي بيع أسهم القنال الى انجلترا بمبلغ ١٠٠ مليون فرنك أي بسعر السهم ٥٦٨ فرنكا وهو يساوي الآن ٤٠ ألف فرنك أحس اسماعيل باشا بضرورة تهدئة الخواطر فأصدر أمرا عاليا سنة ١٨٧٦ بانشاء صندوق الدين العمومى وجعل فيه مندوبين للدول الاوربية (فرنسا ـ انجلترا ـ المانيا النمسا ـ ايطاليا ـ روسيا) وفي السنة نفسها عين الخديو مراقبين أحدهما انجليزي والاخري فرنسى لمراقبة حسابات الحكومة ومشاركتها في وضع الميزانية وهذا أول تداخل رسمي في أحوال البلاد

غير ان هذه المراقبة لم تفد شيئا فقد كانت الضرائب تقرر وتجبي بارادات شفوية ومرتبات الموظفين تؤخر ولا تصرف فشكلت لجنة للنظر فى اسباب عجز الميزانية فقدمت تقريرا مسهباً قرأه الخديو فعول على الحكم بواسطة مجلس النظار فشكل ذلك المجلس برئاسة نوبار باشا وتوالى سقوطه بسبب الاضطراب المالى واحتجت الدول على سوء تصرفات الخديوى وسعت لدي الدولة العلية فى عزله فصدرت الارادات الشاهانية بخلعه سنة ١٨٧٩ فولى الحكم بعده المرحوم توفيق باشا

﴿ محمد توفيق باشا ﴾

١٨٧٩ ـ ١٨٩٢

لما ورد الامر الشاهاني بتولية محمد توفيق باشا كانت أحوال البلاد في اضطراب داخلا وخارجاً حتى ان فرمان التولية تأخر عن ميعاده بعض أيام فأخذ ينظر في علة انحطاط البلاد وفي طرق تلافيها نظر الخبير فكان من أول أعماله أن عين مفتشين يراقبان أمور المالية المصرية أحدهما فرنسي والآخر انجليزي (السير أفلن بارنج الذي أصبح لورد كرومر فيما بعد) غير انه صرح لهما فيما بعد حضور جلسات مجلس النظار وهذا امتياز غريب اذ جعل لهما الحق في الاشراف على كل أعمال الحكومة

ومنها انه جعل الاموال الاميرية على أقساط مقررة تجيء في أوقات معينة ومنها انه شكل لجنة علمية للنظر في أمر التعليم وكان من نتيجة بحثها أن زيدت ميزانية المعارف الي الضعف ومنها انه ألغى كثيراً من الضرائب كالعوائد الشخصية ورسوم القبانة والصيارف وبيع المواشي للمحافظات ثم تخابر مع الدول في تسوية الديون المصرية وأصدر أمره بتشكيل لجنة التصفيه التي كان أعضاؤها من دول المانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا والنمسا ومعهم مصرى واحد (بطرس غالي) وشرع في وضع قانون لها ولما فرغت منه صدق عليه الخديوي وبهذا القانون تسوت الديون وقلت فائدتها وانتظمت المالية الا انه هدم ركناً من استقلال مصر بزيادة النفوذ الاجنبي في شئونها الداخلية

﴿ الحوادث العرابيه ﴾

ينسب بعضهم الحوادث العرابيه الى يد أجنبية وبعضهم الى تذمر الاهلين من دخول يد الاجنبي في ادارة البلاد وانضمامهم الى ضباط الجند ونتيجة الامرين ان هؤلاء الضباط رأوا انهم الاحق بالنظر في تعديل القوانين والتصرف في الحكومة واتخذوا زعيما لهم يدعى أحمد عرابى ورأي هذا الزعيم ان قانون القرعة العسكرية الذي وضعه عثمان رفقي باشا ناظر الحربية مجحف بحقوق المصريين فطلب استعفاء ناظر الحربية وطرد الضباط الشراكسة من الجيش فقرر مجلس النظار محاكمته امام مجلس حربى ولكن جاءت فرقة من الجيش وخلصته مع بعض رفقة كانت معه وسارت بهم الى سراى عابدين فنصح معتمدا فرانسا وانجلترا للخديوي أن يقيل رفقي باشا فأقاله فجاء هذا النجاح مقوياً لعزيمة تلك الفئة التى تسمت بالحزب الوطني اذ قام زعماؤها بمظاهرة عسكرية في ٤ سبتمبر ١٨٨١ امام سراي عابدين وطلبوا عزل رياض باشا فأجيب طلبهم وطلبوا أيضا زيادة عدد الجيش واعادة تشكيل مجلس النواب ولم يقف العرابيون عند هذا الحد بل عزلوا أيضا شريف باشا رئيس الوزارة الجديدة وعينوا عرابيا ناظراً للحربية ومنحه الخديوي في ٢ مارس سنة ١٨٨٢ رتبة الباشا فزاد الحرج واشتدت الازمه مما اضطر فرنسا وانجلترا الى اجراء مظاهره في مياه الاسكندرية

﴿ مذبحة الاسكندرية ﴾

(وسقوط عرابى)

شرعت الدولتان فرنسا وانجلترا في التداخل الفعلي في الادارة المصرية فبعثتا الى الخديوى في ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ بلاغا باقالة الوزارة ونفي عرابي فحرر النظار مذكرة بدون علمه قالوا فيها ان

تداخل الدولتين مناف لاستقلال مصر وسيادة الدولة ورغب الخديوى فى الاستناد على بلاغ الدولتين ولكن مجلس النواب والضباط ألحوا في استبقاء عرابي واتفق أن حدث في ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ الواقعه المعروفه بمذبحة الاسكندريه أو مذبحة يوم الاحد على أثر خلاف بين مصري ومالطي تبودل فيها الضرب بين الوطنيين والأوروبيين ولجأ الاجانب الي السفن الراسيه هناك ورحل الخديوى عن القاهرة الى الاسكندريه وأبلغ عدد الجيش الى ٢٥ ألفا وركبت مدافع جديدة فى حصون الثغر واتخذت جميع الاستعدادات وظل الاسطولان الانجليزي والفرنسي راسيين نحو الشهر في مياه الاسكندرية بعد تلك الواقعه ثم أمرت خارجية انجلترا الاميرال سيمور بالعمل ضد العرابيين وتحت فرنسا من المشاركة فى العمل ضد مصر وسافر الاسطول الفرنسي من مياه الثغر وفى الساعه السابعه من صباح يوم ١١ يوليه ظلت احدى عشرة سفينه انجليزيه تقذف قنابلها الكبيرة الى الساعه السادسه مساء حتى دمرت الحصون كافة ولم ينزل الانجليز الى البر الا فى ١٥ يوليه ومن ذلك الوقت أصبحت انجلترا وحدها بلا معارضه امام مصر وعصاتها وكان عرابى بعد انسحابه من الاسكندريه قد حشد جميع الصالحين للخدمه العسكريه ثم أراد سد القنال فأكد له دلسبس بأن لاخوف من مجيء الانجليز منه ولكن عرابيا أنشأ الاستحكامات المنيعه فى التل الكبير

وفي أغسطس حصلت واقعة القصاصين التي غنم فيها العرابيون بعض المدافع غير ان الانجليز فاجئوهم في التل الكبير وبددوا شملهم ففر عرابي امامهم فى قطار الي القاهرة وتبعه ولسلي قائد الجنود الانجليزية البريه في قطار آخر وقصد القلعه وتسلم مفاتيحها وقبض على عرابى

تاريخ مصر بعد الثورة العرابية (١)

ملخص بغاية الايجاز عن تاريخ مصر من الفتح العثماني الى قبيل الوقت الحاضر

دخلت مصر منذ سنة ١٨٨٢ فى طور جديد وهو الاسترشاد بدوله أجنبية عظيمة وهي الدولة الانكليزية وقد افتتحت هذه الدولة اعمالها بعد احتلال جنودها لمصر عقب قمع الفتنة العرابية بارسال اللورد دوفرين لتقديم المشورة والنصح للحكومة المصرية لاتخاذ الحيطة الكاملة لتثبيت عرش الخديوية واسعاد جميع طبقات الامة افستهل المندوب البريطاني اعماله بالنصح للحكومة المصرية بالعفو عن ضباط الثورة الاصاغر ومحاكمة الزعماء

(١) بعد وفاة توفيق باشا فى ٧ يناير سنة ١٨٩٢ ولى الاريكة المصرية سمو عباس باشا حلمي الثانى فى ٨ يناير ١٨٩٢

الـكبار الذين حكم عليهم بالاعدام ثم استبدلت العقوبة بالنفى الى جزيرة سيلان كذلك ابطلت المراقبة الثنائية لان انـكلترا باحتلالها لمصر كفلت المحافظة على الاموال الاوروبية ولان وجود المراقبة كان يشل حركة الاصلاح الاقتصادي فى البلاد كذلك أنشأ اللورد دوفرين جيشا مصريا جديدا بدل جيش الثورة المنحل وليقوم مقام جنود الاحتلال البريطانى التي كان يراد تقليلها وقد جعل سردار الجيش الجديد انكليزيا يعاونه جماعة من الضباط الانكليز كذلك تناول الاصلاح الدفريني الهيئات النيابية فنشأ مجلس شورى القوانين ذى الـ ٢٦ عضوا وجعلت الجمعية العمومية ذات الـ ٤٦ عضوا للوقوف علي رغبات الاهالى وكانت انـكلترا تريد حقيقة الجلاء عن مصر لولا حدوث حوادث السودان التي اعاقت اعمال الاصلاح

حروب السودان

لم يوطد محمد علي باشا نفوذه على السودان ولم يكن هم الباشوات وجباة الضرائب غير جمع الثروة وابتزاز الاموال والظلم فلم يكن لحكام السودان عمل غير قمع الفتن العديدة وصد هجمات الحبشة وقد استتب النظام نوعا فى المقاطعات الاستوائية سنة ١٨٧٤ علي يد وال انكليزى هو الجنرال غردون ولـكن عاد باعتزاله العمل ظلم حكام السودان فقامت الثورة وانتهت بزوال حكم المصريين وأسبابها ثلاثة ظلم الجباة وحبهم للرشوة ومعارضة الحـكومة المصرية لتجارة الرقيق ومؤازرة رجال الجيش المصرى للثائرين فقد قيل ان عرابى باشا كان يحرضهم سرا وزادت الثورة السودانية نجاحا لان الجنود فى السودان عادوا الى مصر لاطفاء الثورة العرابية واستفحلت الثورة فى السودان بزعامة محمد احمد المهدي المولود في دنقلة سنة ١٨٤٣ وكان فى اول امره يشتغل بصنع السفن ثم انتسب الى معهد من معاهد العلم التي كانت للدراويش فتعلم العلوم الدينية ثم ذهب الى بربر ومنها الى جزيرة أبا وكان في كل مكان درويشا . فأخذ صيته فى الازدياد فجمع ثروة طائلة والتف حوله التلاميذ والدراويش وتعصبت له قبائل البقارة وأخذ يقول انه المهدي المنتظر وان كل من لم يؤمن به هالك لا محالة فاستدعاه رؤوف باشا الحاكم العام لامتحانه فلما أبي الحضور خرج ليقبض عليه فقتله أتباعه فلما خلفه عبد القادر باشا حلمى انتصر على أتباع المهدي غير انه لم يكسر قوتهم وامتد نفوذ المهدى الى كل مكان واستولى على الابيض وأصبح خطرا عظيما واستنجد حاكم السودان بالحكومة المصرية فرفضت الدولة الانـكليزية ارسال جيش الاحتلال فاضطرت الحـكومة المصرية الى تجريد حملة هكس باشا من لدنها وكانت ضعيفة الجنود والمعدات مع عدم توفر طرق المواصلات وخرج هكس من الخرطوم يريد الابيض

وبينما هو في الدويم اذ انقض عليه الدراويش ومزقوا جيشه كل ممزق ولما أقرت الحـكومة المصرية علي اعلان سلخ السودان عنها ليأسها من قمع الفتنة أرسلت غوردون باشا ليتولي مهمة اعادة الجنود المصرية من السودان بعد أن استفحل أمر المهدي وامتد لهيب الثورة الى كل جهة بمساعدة عثمان دقنه تاجر الرقيق القـديم . وخرج غوردون لهذا الغرض في يناير سنة ١٨٨٤ فبلغ الخرطوم في فبراير سنة ١٨٨٤ وكانت الحرب في غضون ذلك سجال بين قوى الدراويش وقوى الحـكومة المصرية التي أرسلت لانقاذ الحاميات المصرية فى الجهات الشرقية من السودان ولم يشرع غوردون توا في اخلاء السودان حسبما كان معهودا اليه بل أضاع وقته في مخابرة أولي الشأن

بالقاهرة في الطريقة التى يحسن أن يحكم بها السودان بعد اخلائه وعرض عدة خطط ومشروعات واقترح ارسال الزبير باشا ليساعده في الجلاء وليكون حاكما على السودان بعد ذلك وكان أيضا يستهين بقوة المهدى الذي كان يزداد نفوذا مما أدي الى قطع خط الرجعة علي غردون

وأنفذت الحكومة الانكليزية بعد ان أدركت مقدار الخطر على غوردون قوة لانقاذه بقيادة اللورد ولسلي فخرجت من قبل غوردون كوكبة بقيادة الكولونيل استورت لمقابلة ولسلي ورجاله وابلاغهم ماراد معرفته من أحوال السودان الا ان قبائل سودانية فتكت بها قرب أبي حمد وقسم ولسلي جنوده الى قسمين بطريق النيل والصحراء ورغما عن نجاحه في صد الدراويش الذين خرجوا لمقاتلته فانه تأخر عن انقاذ غردون وسبقه الدرويش الى الاستيلاء على الخرطوم وقتل غردون (٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) ثم كفت الحكومة الانجليزية عن حصار الدراويش في الخرطوم لاشتغالها بحدود الهند وهكذا فقدت مصر السودان وصارت وادي حلفا آخر الحدود الجنوبية

وكان أخذ الخرطوم ضاعف ثقة المهدويين بزعيمهم ومنوا النفس بفتح ممالك الارض وأخذ الحرمين ولكن خاب فالهم بموت المهدي في ٢١ يونيه سنة ١٨٨٥ وكان قد أوصى لعبد الله التعايشي بالخلافة . فعزم هذا على غزو مصر ولكن جنودا مصرية انجليزية صدته في ديسمبر سنة ١٨٨٥

وكان نفوذ التعايشى قد عم السودان الا ان ايطاليا استلحقت مصوع وما جاورها وأخذت الحبشة بوغوس وانجلترا بربره وزيلع وأوهنده وبلجيكا الكنغو الحرة وشرعت فرنسا في الاستيلاء على بحر الغزال والنيل الابيض وكانت مصر فى غضون هذه الحوادث تعمل على النهوض والارتقاء وتنظيم الجيش المصري بحيث انه انتصر على الدراويش بقيادة ولد النجومي الذي كان يريد غزو مصر فى ١٣٠٠٠ انتصارا باهرا صرع فيه النجومى ولم ينج من قوته غير ٣٠٠٠

﴿ استرجاع السودان ﴾

الرغبة في تخفيف ضغط الاحباش والدراويش على الطليان الذين هزموا في موقعة عدوة سنة ١٨٩٦ وسبق فرنسا الى أعالي النيل ومنعها من التوغل في قلب السودان والاخذ بثار غردون كل هذه من الاسباب التي دعت الحكومتين المصرية والانجليزية لتجريد حيش مختلط بقيادة السير هربرت كتشنر الذى قصد دنقله وأمر بانشاء خط حديدى من وادى حلفا ليتقدم به جيشه الى داخل البلاد . ولما وصل الى فركة جنوبى عكاشه ١٨٩٦ فتك بالدراويش وبدد جموعهم وأخذ دنقله ثم أخذ أبا حمد سنة ١٨٩٧ ثم وقف الزحف حتي تم سكة حديد العطمور وبعد تمامها قاتل الدراويش في جموع عظيمة بقيادة الامير محمود فى واقعة العطبرة سنة ١٨٩٨ ثم حشد ٢٢٠٠٠ مقاتل شمالى الخرطوم والتقى بالدراويش في موقعة أم درمان وكانوا ٥٠ الف مقاتل بقيادة الخليفة فهزمهم واستولي على أم درمان في ٢ ستمبر سنة ١٨٩٨ وعلى الخرطوم فى ٤ منه ثم فر الخليفة جنوبا وأراد استرجاع مافقد ولكن جموعه أبيدت وقتل وبقتله انقضت سلطة الدراويش

وأحوال السودان منذ استرجاعه الى الآن على مايرام من التقدم والارتقاء وقضت اتفاقية السودان بالغاء ماكان للباب العالى من السيادة عليه

﴿ تقدم مصر منذ عام ١٨٨٢ ﴾

يرجع تقدم مصر منذ ١٨٨٢ الى أمرين الاصلاحات الادارية في مصالح الحكومة و تقدم الاشغال العامة لتحسين الري وزيادة الثروة . وقد كانت الحالة المالية في مقدمة ما نظر فيه بعد اخماد الثورة العرابية وذلك من وجهين الاول حالة السكان وما يمكن عمله لتحسينها والثانية حال ميرانية الحكومة وكيف يمكن وضعها على أساس متين بحيث يكفل الدخل المصرف مع عدم الاضرار بتقدم البلاد لذلك حسنت الحكومة حال الفلاح فخففت الضرائب وأبطلت ضريبة الملح والغت السخرة كما أنها سعت لدي الدول صاحبات الديون لتكون حرة في صرف قسم كبير من دخلها على الاصلاحات الادارية والمشروعات العامة الضرورية قبل تسديد أقساط الديون كذلك عقدت قرضا جديدا « ٩٠٠٠٠٠٠ ج » بضمانة انكلتره لتعويض خسائر الاسكندرية وسد عجز الميزانية وتحسين الرى عاجلا ثم تفاوضت دول أوروبا واهتمت الدولة العثمانية خصوصا بتحديد أجل الاحتلال ثم انهن حددن مركز قناة السويس من الوجهة الدولية و بالاتفاق الودي بين فرنسا وانكلترا سنة ٩٠٤ صار للحكومة المصرية حرية اكثر من ذى قبل في الاستيلاء على كل الايراد كما أعطيت لها متوفرات صندوق الدين لتصرفها على الاعمال العامة التي تتلخص في تقوية واحكام القناطر الخيرية والرياحات وعمل القناطر « مثل قناطر زفتي » والمصارف وتحويل رى الحياض في الصعيد الى رى دوري وانشاء خزان أسوان ذلك العمل العظيم .

وتناول الاصلاح القضاء فسن قانون مستمد من القوانين الفرنسية والغيت لجان الاشقياء وأضيفت سلطتها الى المحاكم الاهلية وسار التشريع والقضاء في طريق الاصلاح سيرا حثيثا منذ عين لوزارة الحقانية مستشار قضائي فنظمت أعمال المحاكم بكافة أنواعها وسهلت حركتها ولم يبق من قضاتها غير الاكفاء وأصلحت مدرسة الحقوق لتخريج القضاة ورجال النيابة والمحاماة القادرين كما ان روح الاصلاح دبت في جسم باقي الوزارات والمصالح فنظمت أعمال المالية وضبطت حساباتها وقدرت الضرائب وتعين ميعاد جبايتها و بطل استعمال الكرباج وزيدت الطرق الزراعية وزينت المدن بالمباني الفخمة وزادت السكك الحديدية الضيقة وخطوط الترام وعني بالامور الصحية وانتشرت المدارس والمكاتب وأعيدت البعوث العلمية الى أوروبا . وجملة القول صار فى البلاد المصرية نهضة مباركة يجدر بكل مصري الاشتراك فيها والانتفاع بها .اه

(استدراك): ملخص تاريخ الاندلس

(فتح الاندلس) كان موسى بن نصير أمير المغرب عاملا على أفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ابن مروان وهو سادس خلفاء بني أمية وكان منزل نصير بالقيروان وكان قد استنزل بعد حروب كثيرة لطاعة المسلمين يوليانوس الذي كما يقال كان حنقا على رودريك ملك الغوط فأرشد طارق بن زياد الليثي الى سبيل يمكنه من فتح الاندلس فجاز طارق البحر سنة ٩٢ هـ ٧١٠ م باذن أميره موسى بن نصير في نحو ٣٠٠ فارس من العرب واحتشد معهم من البربر نحو ١٠ آلاف فصيرهما عسكرين أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح وهو جبل طارق والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف ثم أداروا الاسوار على أنفسهم للتحصن و بلغ الخبر رودريك فنهض اليهم بجيش كثيف فلقيهم في فحص شريش فهزمه طارق وطريف وكتب طارق الى موسي بالفتح والغنائم فحركته الغيرة وكتب الى طارق يأمره أن لا يتجاوز مكانه حتي يصل اليه ثم نهض موسي من القيروان في عسكر غفير ممن وجده من العرب والموالى وعرفاء البربر ووافي خليج الرقاق بين طنجه والجزيرة الخضراء ودخل الاندلس فلقي طارقا وأتم موسى الفتح متوغلا فى الاندلس الى برشلونه فى جهة الشرق وأربونه في الجوف وقارش فى الغرب ثم قفل موسى عائدا الي القيروان بأمر الوليد بعد ان ولى عليها ابنه عبد العزيز وانزله بمدينة قرطبة ودامت الاندلس من سنة ٩٢ هـ ٧١٠ م الى ٣١٨ هـ ٧٥٥ م بيد الولاة من بني أمية و بني العباس

(ذكر خلفاء بني أمية بالاندلس)

انه بعد ان زالت دولة بنى أمية من دمشق وانتقل الملك الي آل العباس وتولى الخلافة منهم أبو العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩ م أخذ هذا الخليفة ومن تولي بعده فى استئصال الامويين وابادتهم قتلا وتشريدا فاستخفي منهم عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل وهو ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ثم هرب من وجه بني العباس الي مصر ومنها الى برقه ثم الى بلدة يقال لها طاهر من بلاد المغرب فنزل على أخواله خفزاوة من برابرة طرابلس فشعر به عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى وكان قد تولى المغرب ودعا لبنى العباس ففر منه عبد الرحمن الى قوم من مكناسة وبعث مولاه بدرا الى من بالاندلس من موالى المروانيين وأتباعهم فاجتمع بهم و بثوا له فى الاندلس دعوة ونشروا له ذكرا وفي تلك الغضون كانت الفتنة بين اليمنية والمضرية فاجتمعت اليمنية على أمره ورجع اليه مولاه بدر بالخبر فأجاز البحر سنة ١٣٨ هـ ٧٥٥ م في خلافة أبي جعفر المنصور ولما وصل بايعه قوم من أشبيلية وشذونة وقرطبة وغيرها ووصل خبره الى يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الاندلس يومئذ فأتى وحاربه فهزمه عبد الرحمن الداخل وملك القصر ثم بايعه أهل مالقه و برندة وشريش وسائر الجهات وطال الامر بيوسف فرارا وتأمينا وخروجا الى أن قتل سنة ١٤١ هـ ٧٥٨ م فاستقام امر عبد الرحمن واستقر ثانية وقطع الخطبة للعباسيين فتجددت به خلافة الامويين وأسس في الاندلس خلافة ثانية سنة ١٣٩ هـ ٧٥٦ وكان يلقب بالامير هو وخلفاؤه الى عبد الرحمن الناصر وهو ثامنهم فتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله وكان شابا فاستبد بالامر دون أعمامه وأعمام أبيه فسكن الاضطراب بالاندلس وقاتل المخالفين حتى أذعنوا وأستقامت الاندلس في نيف وعشرين سنة من ملكه ودامت

أيامه ٥٠ سنة استفحل فيها ملك بنى أمية هناك وصارت مدينة قرطبة عاصمة الاندلس مركزا للعلوم والآداب وكثر فيها العلماء من كل فن فكانت قرطبة تناظر بغداد عاصمة آل عباس و بعد ان أذعنت لعبد الرحمن الناصر تلك الاقاليم ونفذت كلمته وارتفع سلطانه شرع في تشييد المبانى والقصور وكان جده وأبوه قد بنوا القصورهم على ا كمل الاتقان والضخامة

وكان الناصر كلفا بعمارة الارض واقالة معالمها وانبساط مجاهلها واستجلابها من أبعد مقامها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك واستقام السلم والعدل في أيامه واتسع نطاق الحضارة وامتد العمران وراجت سوق الزراعة والتجارة ففاضت على الأندلس ينابيع النعم وأحدقت بها مجاري الثروة فكانت جبايتها ستة آلاف الف دينار وكان عدد مدنها ثمانين مدينة كبيرة وثلثمائة مدينة صغيرة وعدد قراها ومزارعها اثني عشر الف قررية ومزرعة علي صفتي النهر الا كبر واتصلت العمارة فى مبانى قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث أنه كان يمشى فيهما بضوء السرج الممتدة عشرة أميال ولا يزال حتي الآن بقايا دور الخلفاء التى مر ذكرها وتوفي الناصر سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١م و بعد وفاة عبد الرحمن الناصر استقل بالملك ابنه الحكم وتلقب بالمستنصرفطمع الجلالقة في الثغور فغزاهم وعقدوا معه السلم ثم توفي سنة ٣٦٦ هـ ٩٧٦ م

ولما مات الحكم خلفه على سرير الاندلس ابنه هشام وكان صغيرا مناهزا الحلم وتلقب بالمؤيد وأقام هذ الخليفة مدة خلافته كلها تحت تغلب وزيره المنصور بن أبي عامر الذي استقل أخيرا بالملك وتلقب بالحاجب المنصور وتوفي سنة ٣٧٤ للهجرة ٩٨٤ م وخلفه ابنه المظفر ثم ابنه الآخر عبد الرحمن أخو المظفر وتلقب بالناصر وسلك عبد الرحمن هذا وأخوه المظفر في الحجر على الخليفة المؤيد المشار اليه وأخيرا أكرهه على أن يوليه عهده فكتب له بذلك صكا وأعطاه صفقة يمينه بيعة تامة فنقم ذلك الامويون والقرشيون واتفقوا على تحويل الامر من المضرية الى اليمنية فاستغنموا فرصة غياب الناصر ببلاد الجلالقة وثاروا سنة ٣٩٩ هـ ١٠٠٨ م وخلعوا المؤيد هشاما وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدى وأغروه بقتل الناصر فانقرضت به دولة العامريين فثار عليه البربر وخلعوه ففر هاربا و بايعوا سليمان بن الحكم بن الناصر ولقبوه بالمستعين وذلك آخر سنة ٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م ثم ان محمد المهدي استجاش بالفونس الخامس صاحب قسطيله وأتى فاسترد الملك سنة ٤١٠ هـ ١٠١٠ م وجرت بينه وبين البربر حروب فانهزم وقتل وأعيد المؤيد هشام ثانية سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م وبقيت الحروب مستمرة وفتك البربر بالمؤيد هشام ودخل المستعين وتفرق البرابرة على الولايات الاندلسية ثم كان الفتى العامري يكاتب الناس فى الخروج على سليمان المستعين فوافقوه وكاتبوا علي بن حمود بن أبى العيش من الادارسة فجاء سنة ٤٠٥ هـ ١٠١٤ م وملك قرطبة سنة ٤٠٦ هـ ١٠١٥ م وقتل المستعين وأبوه وأخوه فكانت دولة العلويين وانقرضت دولة الامويين ثم خالف خيران العلوي علي بن حمود وأرسل يسأل عن بني أمية فدل على عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وكان قد خرج مستخفيا من قرطبه فبايعوه ولقبوه بالمرتضي واتفق على ذلك ا كثر الاندلس وذلك سنة ٤٠٨ هـ ١٠١٧ م وتغير المرتضي علي خيران وحاربه أهل

غرناطه وأميرهم من بني زيري من صنهاجه فانهزم المرتضى وقتل وفر أخوه هشام ثم قتل بن حمود فولى مكانه أخوه القاسم وسار القاسم الى أشبيلة و بقي المعتلي بقرطبة وأعاد الملك الي بني أمية واختاروا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدى و بايعوا سنة ٤١٤ هـ ١٠٢٣ م ولقبوه المستظهر وسنة ٤١٨ هـ ١٠٢٧ م بايعوا هشام الثالث ولقب بالمعتد بالله و بقي الي سنة ٤٢٢ هـ ١٠٣١ م فكان آخر خلفاء بني أمية بالاندلس وعدتهم ستة عشر خليفة وكانت دولتهم عظيمة جدا في هذه البلاد وثروتهم وافرة ومجدهم باذخا الى أن أخذوا في السقوط كما هو شأن غيرهم من الامم

(العرب في الاندلس)

كانت سلطنة الاندلس في صدر الفتح في حالة مضطربة من اختلاف الولاة عليها من عمال أفريقية واختلاف الولاة داع الى الاضطراب وعدم تأثل الاحوال وتربية الضخامة في الدوله ولما صارت الاندلس لبني أمية وتوارثوا ممالكها عظمت الدولة وترتبت الاحوال والقواعد وكانوا صدرا من دولتهم يخطبون لانفسهم بابناء الخلائف ثم خطبوا لانفسهم بالخلافه وملكوا من بر العدوة ما اتسعت به دولتهم وكانت قواعدهم اظهار الهيبة وكانوا في نهاية من الانقياد الى الحق لهم أو عليهم وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة ولما خرقوا هذا الناموس تهتك أمرهم ثم اضمحل فاستبد ملوك الممالك الاندلسية ببلادها وسموا بملوك الطوائف وصاروا يتباهون في أحوال الملك حتى في الالقاب فآل أمرهم الى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء وترفعوا الى طبقات السلطنة العظمي وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفه والخصب والغنى التى تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم وتنهض بهم للمباهاة وقد كان بنوا حمود من ولد ادريس العلوى الذين توثبوا علي الخلافة في أثناء الدولة المروانية يتعاظمون و يأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بنى العباس وكانوا اذا حضرهم منشد لمدح أومن يحتاج الى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفه

ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسطون للخاصة وكثير من العامة و يظهرون مداراة الجند وعوام البلاد وكان أكثرهم يحاضر العلماء والادباء ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مباديه في الرئاسة ومنذ وقعت الفتنة بالاندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن امام الجماعة وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرئاسة كما يتوارث ملوكها الملك ومرنوا علي ذلك فصعب ضبطهم الى نظام واحد وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بفتح المنافسة والطمع الي أن انقادوا الى عبد المؤمن و بنيه وتلك القواعد في رؤسهم كامنة والثوار في المعاقل تثور وتروم الكرة الى أن ثار ابن هود وتلقب بالمتوكل ووجد القلوب منحرفة عن دولة بر العدوة ومهيأة للاستبداد فملكها بأيسر محاولة مع الجهل المفرط وضعف الرأي وكان مع العامة كانه صاحب شعوذة يمشى في الاسواق و يضحك في وجوههم و يبادرهم بالسؤال وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء فآل ذلك الى تلف القواعد العظيمة وتملك الامصار الجليلة فتقلصت تلك الظلال ودخل الاندلس الانحلال الى أن كان السلطان أبا عبد الله من بني الاحمر فاستولي عليها أهل البلاد من الاسبانيول وذلك سنة ٨٩٧ هـ ١٤٩١ م

فهرست اجمالى

جمع هذه الدروس من أوثق المآخذ العربية والافرنجية ووقف على طبعها وترتيبها الاستاذ حسين لبيب المدرس بمدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة

تأسيس الدولة العباسية

انقسمت الشيعة العلوية بعد مقتل الحسين إلى فرقتين فرقة الإمامية التي تقول أن الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة الزهراء وقد بايع جماعتهم بعد الحسين ابنه علياً زين العابدين وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابه الإمامية حتى صار الأئمة اثنى عشر إماماً والأخرى تقول بتحول الخلافة بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرقة الكيسانية وانتقل ولاء الكيسانية بعد موت محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم الذي خرج إلى الحميمة عند بني عمه من آل العباس وأوصى بنصيبه من الخلافة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فانتقل ولاء الكيسانية إليه وظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى البيت العباسي الذي نظم الجمعيات السرية وجعل لها نقباء وأوصاهم ببث الدعوة سراً لآل البيت مطلقاً فنجحوا في خراسان والكوفة خصوصاً وساعد على نجاحهم انشغال البيت الأموي بظهور الخوارج ولما مات محمد المذكور خلف أولاداً منهم ابراهيم والسفاح والمنصور فتوجه أولاهم إلى أبي مسلم الخراساني الذي جدد الدعوة وأيقظ النعرة بين قبائل العرب في خراسان وأوقع الهزيمة بنصر بن سيار (والي الأمويين على خراسان) ثم اجتمعت جموع العباسيين وأوقعوا بالأمويين عند نهر الزاب وبذلك زال ملك الأمويين

الامم الاسلامية


Bibliotheca Alexandrina
0173698